

# فكرة .. فائتسامة



اهداءات ٢٠٠١

اسلام راقية

القاهرة



# مؤلفات سید محمد حسن



مكتبة



بجى حقى

# فكرة .. فابتسامة

المقالات الأدبية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٦









## سَيِّدَاتِي ، آيِسَاتِي

**لعل** أبلغ دلالة في نظري على قدر المرأة عندي أنني من أجلها وحدها لا ينقطع تحسري أن معبد الشعر مغلق في وجهي بالضربة والمفتاح ، لا أملك الدخول إلى عرابه ولو من سلم الخدم ، فلأن أراها أمسى من أن أخطبها بالنثر ، حقها أن يصاغ لها قصيدٌ جواه من قبس جمالها ، ورقته من وحى رقتها : حتى ولو كان الكلام لا يزيد عن « صباح الخير » أو « كيف الحال » - فهمة التحامل على المرأة منفضة عنى إذا وجهت إليها اليوم كلاما لا أطيق كتمانها ، إنه منبعث من قلب جريح ، وما جاءت طعنته إلا من يد هذه المرأة التي أجلها وأحبها إلى درجة الوله .

سأقدم لك بلا مبالغة لوحات شهادتها بعيني تقززت لها نفسى أشد التقزز ، قوام كل لوحة امرأة ، وهذا هو سبب بلوإى :

### اللوحة الأولى : فاتن

الست مسترخية على مقعد وثير ، كانت قد تناولت فطورها وأكلت حتى شبع ، وقفت أمامها على بعد تحدده أنظمة الكورتيئات امرأة مسرولة بالسواد ، شاحبة الوجه ، كسيرة النظرة ، تحمل على ذراعها طفلة في خرق رثة ، في عينيها النونو مسكنة البالغين ورعب راشد أبكم ، هذه هي الخادمة الجديدة التي جاءت تلتمس رزقها بالذل وعرق الجحش ، تبينت منها أنف الست رائحة غريبة عليها لا تعرف لها اسما ، ليست هي البخر ، أو زخمة العرق ، بل هي شيء يجمع بين رائحة الرماد ورائحة أوراق الشجر الصفير حين تنفث عطنها قبل أن تنفث على الأرض ، قالت الست في سرها : لا بأس سأدخلها الحمام قبل أن تبدأ العمل ، وما علمت أنها رائحة خاصة بالجائعين والجائعات : لا تربلها رغبة صابون الأرض كله ، بل أكله تملأ البطن .

استجوبتها الست استجواب وکیل نيابة لهم ، وحددت لها أجراً تصرف مثله وأكثر منه في سهرة واحدة ثم أبت أن تترشح عنه (إذا كان يعجبك : . ) قبلته الخادمة صاغرة ودعت بسعة الرزق وطول العمر ، فلما خيل للست أن الخادمة تستحق التجربة اعتدلت في جلستها ولمعت نظرتها وهي تصوبها إلى الطفلة يريق

نحاطف من الغيظ : كيف يمكن أن يترعرع كل هذا اللحم المفلظ  
وسط انحرق وعلى صلب مطبق ، ثم أشارت إلى آية الشنود  
بالسبابة وقالت :

— إيه ده اللي انتى شايلاه على دراعك ؟

ابتسمت عين الأم وأجابت :

هذه بنتى فائن ( لا عجب فنحن فى عصر السينما ) عمرها  
ثمانية شهور : سابنا جوزى ومشى من قبل ما أولدها .  
— إحنا عاوزينك وحلك ، شوف لك صرقة فى بنتك ،  
أنا مش عاوزة وساخة فى البيت .

— ماليش حد ياستى ، ربنا يطول عمرك ويخلى لك أولادك .  
— ده شغلك مش شغلى .

— مايهونش على أرميها عند واحدة من الجيران نخيب أملها .  
أهى زيتها زى غيرها .

أشاحت الست بوجهها وتناولت قطعة من الشكلاتة وأخذت  
تمضغها كأنما عز عليها أن يضيع لها وقت فى انتظار رد تملكه  
خادمة .

ملت الأم لإصبعها نحيلاً لأنه جميل إلى شفة ابنتها تحاول أن  
تداعبها لتبتسم وتمتمت لها بحنو عميق :  
— لو كنت تموتى . .

## اللوحة الثانية : لدغ اقسى من الصفع !

الست نحيلة ضعيفة ، لو تلقت على أم رأسها لكمية واحدة  
لاختنقت وحوحوتها بين حطامها : في قلبها شعور غامض أن  
عدوا مجهولا قد مرق منها شيئا لا تعرف ما هو ، ولكنها من  
أجل فقدانه تعيسة في حيساتها وليس في حياتها ما يرهقها  
في صوتها، مهما كان كلامها ، نبرة حتى مزمن مكتوم، صوته كله  
على رعوس سلسلة من الخادعات من مختلف الأعمار ، لا يزيد  
بقاء الواحدة عندها أكثر من أسبوعين ، لو سألتها عن أمائها  
لمجزت ، فما أنتج صبّ الحق نفاذه بل زاده اشتعلا كأنه من  
بتروك يذلق على نار ، كان يكفي لإثارتها أن توجه نظرتها فترتد  
عن ثدى كائن أو قادم لواحدة من جنسها تشاركها السكن .

وأخيرا ثابت عن استخدام النساء ونقصت حياة زوجها حتى  
ظفر لها من الريف بصبي فلاح يتيم لطيم ، تعهدت هي بتربيته  
وتعليمه : وتحملت الجهد الكبير الذي بذلته لأنها كانت تحسب  
في سرها كم يبلغ في خمس سنين مثلا الفرق بين أجر هذا الصبي  
وأجر مخادم المدينة ، ولم يتبين إلا فيما بعد أنها سجلت بالجهد  
فيما سينمائها احتفظت به في خزانة ذاكرتها .

ومضى زمن فلذا بالفلاح الجلف ينقلب إلى فتى متمدين ،  
ذكى النظرة حلو الابتسامة ، لا حد لصبره وقناعته ، تخلى عن  
لهجته الريفية ، وأصبح يتحدث وينكت كأولاد البلد ، يتكلم  
في سياسة الدول ، ويعرف بالإسم صاحب كل صوت في الراديو ،  
وحين طالت قامته خلعت الأميرة عليه في يوم عيد بئنة قديمة  
ففرح بها وإن غابت قبضة يده في الكم ونزلت حافة الجلاكتة  
إلى الركبة : ولبسها ونخرج إلى حديقة الحيوان وعرف طريقه إليها  
وحده .

وتوالت الأعوام وظن الفتى أن المولى سبحانه قد عوضه  
عن اليتيم والتلطيم بأسرة يلوذ بها ، ولكنه ارتكب ذات يوم  
حماقة لا أدرى ما هي ، فنوى عليه ، دخل ووقف ذليلاً  
مكسوفاً ، سعادة البك يجلس ملوياً بجانب الراديو ، والست  
متحفزة قد قبضت على ذراعى المقعد ، وبعد صمت قصير فهم  
سعادة البك أن الكلام متروك له : لا حفظاً للمقام ، بل ليورينا شطارته  
أولا وببلغ حماشته ، ولأن المدفعية الثقيلة لا تتحرك إلا وراء  
المشاة . وصرخ سعادة البك :

— ده شغل ؟ دى أصول ؟ يا مغفل ، يا طور ، يا بهيم  
مش تعقل بقى ؟

تلقى الفتى بابتسامة خمجلى هذه الشتائم لأنها فارغة وأقسم أنه  
تلب : فقال له البك :



روح غور من وشى . .

لهجة الرجل رغم حلتها تم عن قبول التوبة ، واحتاظت  
زوجته لتساهله فتدخلت المدفعية الثقيلة ، بأن استخرجت الست  
الفيلم القديم من خزائنه وأقبلت على الفتى تقول له من بين أسنانها  
وجسدها يتقل فى مقعدها :

— جرى إليه يا واد ؟ انت اتفرعت قوى : لا بس بدلة  
وعامل افندى وعرفت سكة السينما ، انت يا واد نسيت ولا إليه ؟  
نسيت يوم ما جيت لنا ، القشف لغاية فخادك زى اللحاف ،  
راسك قرعة ومزئحة وبتتر ، عيناك معصية ، القمل سارح على  
جبتك اللى بالبلا ، جلايتك مقيحة ما فيهاش حنة على بعضها :  
جاي لنا من ورا ايلخاموسة وابخاموسة كانت تفهم أكثر منك ،  
مدالك وعلمناك وبقيت بنى آدم ، وبعد الفلس واللضى بقى فى جيبك  
فلوس تشخشخ بها ، وما تنامش ليلة جمان ولا طفحان مش  
مليان دود . .

تمنى الفتى أن تصفحه بكفها ولا تذله وتهدم كرامته بلذغ  
العقرب ، أجابها بعين منكسرة :

— أنا برضه يا ست خدأمك أنا مش نامى وكل واحد  
يردن لأصله .

اعتراف بالهزيمة كسا وجهها بزهو الانتصار ، وما أدركت  
فى جبروتها أن لسان هذا الفتى الجاحل قد نطق بحق يدمغها  
قبل أن يشمله .

### اللوحة الثالثة : خمسة صاغ

أم محمد الغسالة ولية معصصة الساقين والذراعين ، تجرى  
على رزق ستة من العيال أيتام الأب ، حين تنزل من على الوابور  
صفحة الماء المملوءة لثم عينها يتقوس ظهرها وترم شفتيها وتتفحص  
موضع قدميها لتحكم وقفها وترفعها بحزقة تشرخ الحلق لئلا تحرق  
جدار البطن : ثم تجلس أمام الطست وتظل يداها تدعكان بلا  
انقطاع من مطلع الصباح إلى ما بعد الظهر، لها لمحدثها بسبب وش الوابور  
هيئة الصماء : نظرة شاخصة وصوت مرتفع النبرة ، غسيل أم  
محمد نظيف كالشمع ، الزهرة مضبوطة ، لم ينضج منها ثوب ملون  
على ثوب أبيض ، ما ضاع منها منديل ولا سقط في الطريق قميص ،  
ولكن لأم محمد عيباً غريباً لم تنعقد المودة بسببه بينها وبين ستات  
البيوت ، ينظرون إليها نظرتهم إلى امرأة مريوحة أو مخبولة ،  
عيبها أنها إذا جلست أمام الطست حلاها أن «تعدد» كأنها في مأتم ،  
بنغم حزين يفتت الصخر ، مأساة كل ثاكلة ولهي تنطق من فمها :  
«اتفقت الست مع أم محمد على أن تغسل لها كل يوم اثنين لقاء  
جنيه واحد في الشهر ، هي المتسكفة بالغسيل ونشره وجمعه

وتطبيقه وفرز ما يرمل للسكواء ، ومضى على الأبونية أكثر من سنتين ، لم تخلف قط موعدها ، أجزها غير مرتبط بأعمار الأكل والشرب ، الحنيه هو هولم يتغير ! :

وعجبه أم محمد لهذا البيت دليل على أن الست تستخدم رجلا لامرأة وحدث أن خرج خادمها ولم تجد بدله إلا صبية صغيرة ، وبعد يومين اثنين حين رأت الست أن البنت جالسة تستريح لحظة فرزتها من مكانها وطلبت إليها أن تفعل شيئا :  
— اغسلي لك مندلين ولا شرابين :

فجمعت البنت الخائفة كل الجوارب والمنديل وغسلتها أحسن غسل  
في يوم الاثنين التالي صبرت الست على أم محمد حتى أتمت غسلها وقبل أن تنصرف استوقفتها وقالت لها :  
— شوفي يا أم محمد ، من هنا ورايح ح نشيل عنك المنديل والشرابات ، وعشان كده ح نخصم من أجرتك خمسة صاغ .

#### اللوحة الرابعة : عشرة كيلو شايه عشرة كيلو

لن أصف لك هذه الست : أنت تراها مثلى في المترو والأتوبيس ، ينالني منها — لا من رجل — أقصى زغد لتسبقني في الطلوع وهي ورائي ، تفحصني في ركن لتتزل قبلي ، هي ميدة ككيس القطن ،

الأحمر مشلّط ، والكحل سايح ، على صدرها بروش لايدل كبر  
حجمه إلا على تقاهة ثمنه : يارب .. كيف يمكن أن يوحى وجه  
امرأة يمثل هذا الغلظ والحمود ، تجلس أمامي وتأخذ تنظر إلى الخلق  
كله ... لا إلى وحدي ... شررا وبحق شديد ، حينئذ أتمنى أن أكون  
أنا المقتى وتعرض على قضيتها لأكتب بالثلث على الملف «حلال فيها  
الإعدام» هذه الست التي لو مالت على جدار طلمته لها ابن يزن  
عشرة كيلو ، زئبق لا يستقر ، يخوض أجسادنا بحذاته ليصل إلى  
الشباك . الست لا تحمله ، حيب على الشياكة والأناقة ، أتدري لمن  
تركه ؟ لطفلة صغيرة لا يزيد وزنها هي الأخرى عن عشرة كيلو ،  
حقها أن تدلل على الركبتين وتضم إلى صدر وتنام في حضن وتكون  
لها عروسة تلعب بها ، أراقبها وهي تنوء بحمل الصبي ودعكه لها وفركه ،  
فلا أرى في حينها أقل أثر للهم ، بل تحوط بلراعها هذا الشمشوم  
الصغير كأنها هي أمه ، والغريب أن يد الست تمتد أكثر من مرة  
لتعدل ثوب ابنها ولم أرها قط تمتد لتربت على كتف خادمتها وتصبرها  
أن المشوار قصير .

وإذا جاء الكمسارى تقول له بالفم المليان «تذكّرة ونص»  
ولو كنت مكانه لقلت لها :

— النص لك أنت لأنك رغم ضخمامتك لست إنسانة كاملة ،  
والتذكّرة لهذه الصبية لأنها تقوم بعمل يعجز عنه بعض البالغين ..  
وفهمت من نظرتي إلى وأنا جالس مفعوص أنه يقصدني أنا :

( « النساء » ، ٢٩/٥/١٩٦١ : ص ٦ )

## أنا خرماني

**هذه** المخلوقة الضئيلة الحقيمة التي لولا ضعف الانسان و حماقة  
لما قامت لها سوق رائجة تنعزز فيها وتبغدد علينا ، هذه الدودة  
الغليظة ، المهرومة المصارين ، المحشوة خبثا ، تتلفح بطرحة بيضاء  
وفي قلبها أنخل السموم ، هذه الطاهرة وهي جثة ، تصبح نجاسة  
عقنه تلوث كل شيء تلمسه إذا دبت فيها الروح ، وروحها من نار  
جهنم ، هذه السيجارة ماذا فعلت بأناس هم مع الأسف ولسوء الحظ  
كرام أهل حياء ، فإذا بحصن حياتهم المنيع لا ينهلم إلا أمام سحرها ..  
أعرف موظفين لهم رغب ضآنة مرتباتهم يد عفيفة ، تقطع ولا ترتشي ،  
ومع ذلك يغضون البصر وأنت تترك على مكاتبهم علبة السجائر كأنك  
نسيتها ، لو دفعت لهم ثمنها لبصقوا في وجهك ، أحس وأنا أوليهم ظهري  
بغصة مريرة طالعة نازلة كالمصعد بين مخلوقهم وقلوبهم وهم يلعنون في

سرم هذه السيجارة التي أذلتهم ويلعنون معها شاربها .: التي هو أنا  
وهذا الصديق الحصيف المترن ، صاحب الرأي الثاقب يعطيك  
الجواب القاطع الفاصل إذا استشرته ، ماذا تفعل بزواجك حين  
تتكذ عليك ، أو كيف تدبر أمرك ومن تقترض إذا هل آخر  
الشهر أو ، وعد قسط المدارس ، ومن هو أمهر وأرخص ترزى  
يقبل التفصيل بالتقسيط والقماش من عنده ، ومن أين تشتري خزين  
المسلى من منوف أم من ميدان الحطة ، هذا الصديق الذي يحل هذه  
المشكلات العويصة كلها ينهم عليه الرأي وتركبه الحيرة وأنت  
تعزم عليه بسيجارة فيقول لك وحمرة الخجل تجال وجهه : أنه  
لا يدخن عادة (المعنى . أنه لا يشتري السجائر ) وإنما يدخن أحيانا  
وينطق لك بكلمة « أحيانا » على نحو تفهم منه أن هذه « الأحيان »  
لا تشملك ، فيماتى أملك بهذا الشك وبأن القرعة قد تأتى على  
غيرك ولكن من قبل أن تبلع ريقك وتطمئن على أن مقطوعينك  
من السجائر فى يومك ان تنقص وأنتك ستنام بدون تقلب طويل  
على الجنين ، تدرك فجأة أن الطوبة جاءت فى المعطوبة ، إذ  
سرعان ما يضيف هذا الصديق بلهجة كلها ود واعزاز ، ويده  
تمتد بحياء ، تمسك عرقها بجهد جهيد ، قائلا إنه اكراما لك ،  
سيقبل منك سيجارتك هذه المرة (والمعنى أننى ان آخذ غيرها الآن  
فاطمئن وليس من الضرورى كما سمعت أن آخذ سيجارة خدا ،  
فتشجع واعزم بها على ولا تخف ) :

يظن أنني سأنسى الحديث الشريف : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

تقول في شرك وأنت تتمجب : كيف يكون في سلب سيجارتي إكرام لي ؟ الله الغني عن هذا الإكرام . .

ثم يمتد الحديث ويحلوقأستنيم وأعزم عليه بسيجارة أخرى ، فيطيل معي الجدل في القبول والرفض ، ثم ينسى المفهوم الصريح للمفوف كلامه ويأخذ هذه السجارة الثانية ، وحجته أن الجدل المتعب لن ينتهي إلا بهذه التوضيحية من جانبه . .

وإنما هو والشهادة لله لا يزيد قط على السيجارتين ، ومهما حاولت إرضاه على شرب ثالثة ، فإنه يرفض بلهجة تسترحمك كأنها تقول لك : امسك على بقية حياتي .

وأرقب هذا الصديق ، فإذا به يفعل مع غيري مثل ما يفعله معي ، كأنه مكلف بتوزيع إكرامه بهيالة على كل من يعزم عليه بسيجارة ، وتكون النتيجة أن عدد السجاير التي يستهلكها هذا الصديق الذي لا يدخن عادة يزيد على عدد سجاير مدخن مزمن انخرّب بيته مثلي .

أحس أن هذا الصديق الكريم . . صاحب الحياء الأصيل يكره نفسه إذا آوى لقراشه ، وزاد سعاله من خلط ، بين البيلمونت والبحارى والمائوسيان ، إنه يقسم أنه لن يمد يده من بعد إلى سجارة سفلة ولو من أعز الحبايب . . لكن ابق قابلي . .



هنا تكتيك شائع ، لعلك تعرفه أنت أيضا ، وهناك تكتيك آخر : هو عكس التكتيك السابق على طول الخط ومع ذلك ليس بالأقل منه نجاحا ، أستاذ هذا التكتيك صديق آخر يفوق صديقنا الأول في حياته ، أدخل عليه في مكتبه ، فلا أكاد أجلس حتى يخرج من جيبه ، أو من درج مكتبه علبة سجائر صغيرة ، ويمدّها نحو صديقي ، ويخلف على أن لا بد أن أشرب من عنده سيجارة ، ثم يفتح العلبة فلا أجد فيها إلا سيجارتين وليس غير ، يعطيني واحدة بفرح شديد ويأخذ واحدة .. تقول له « نخل عنك ، ليس عندك سجائر » فيقسم لك أنه أرسل في شراء علبة ، وإنها في الطريق ، وتفرغ من شرب السيجارة في خمضة عين ، ويطول الحديث ويحلو ، فأخرج علبتي وأعزم عليه بسيجارة ، فيأخذها أخذ عزيز مقتدر ، فهذه واحدة بواحدة .. فلا فضل لأحد على الآخر ، ولكني أنظر إليه وأنا أعزم عليه بعد فترة بسيجارة أخرى ، يأخذها أيضا باطمئنان ، ما دامت علبته البلديدة سهل علينا من قريب ، وهذا شأنه مع الثالثة والرابعة والخامسة ، تفرغ علبتك أو تكاد وتقوم : . وعلبة هو لا تزال في علم الغيب . . .

أنا واثق أنه يفعل هذا مع كل زواره ، حتى كنت أظن - وبعض الظن إثم - أنه يشتري سجائره فرطا ، ويعد لكل زائر علبة بها صنارتان اثنتان .. وأعلم علم اليقين أن هذا الصندوق لا ينام الليل من شدة كربه ، ونحجله من عجزه عن سدّاد ديونه ، لعل هذا الإرهاق النفسي هو مرد تكتيكه العجيب في شرب السجائر .

ولى صديق آخر ، أقول لى فوراً وبافتخار أنه من الأثرياء حتى لا تظن أن جميع أصدقائى غلابة فقراء ، ما طلبت منه قرضاً فكسفتنى ، يدعونى مراراً للغداء والعشاء ، ولكنه يعاملنى أحياناً معاملة لا أدرى هل تجعلنى أزعل منه أم لا أزعل ، إنه يعلم أننى من كبار المدخنين ، ويرى نوع سجائرى ، هى لا ترسو ولا بريموبل سكوندو ، إذا قدمت له سيجارة رفضها بتأفف لاجمالة فيه ، ثم بعد هنية يخرج هو من جيبه علبة سجائر لاكى سترايك يضغطها فى قبضة يده ضغط كماشة حتى يكاد يفحصها أو يعصرها ، ويميل ثقبها نحوى بتردد شديد وبزاوية أقل من ٩٠° ، يده تتقدم وتتأخر ، وسجفونه قرمش ، هى حركة من يريد أن يشعل بعود ثقاب وابور بريموس انظفاً وزجرج وانعقد دخانه ، كأنه يقول :

« استلوق.. لك سجائرك ولى سجائرى » عجيبة هذا الرجل ، تهون عليه خلوة أو عشوة ولا تهون سيجارة واحدة.. أكاد أحياناً كثيرة أحم بمد يدى لأنتزع سيجارة من الكماشة ، لإغاظته من ناحية ، ولرده من ناحية أخرى إلى أصل معدنه فى الكرم والإنسانية واللوق ، ولكن عجبى من مسلكه يشل يلى :

أظرف هؤلاء الناس جميعاً : . صديق صريح كل الصراحة ، انه يكره التفاق واللف والدوران ، لذلك عقد معى اتفاق جنتلمان تعهد فيه بألا يأخذ منى فى اليوم الواحد إلا سيجارة واحدة لا مفر منها ولكن لا ثمانية لها ، فأراحنى مسلكه كل الراحة ، وخلص لقاؤنا وحديثنا من كل حرج أو مؤامرة ، وأشهد أنه يحترم هذا

الاتفاق بدقة وأمانة، ولا ينكر أنه عقد اتفاقات مماثلة مع عدد من  
بقية أصدقائه ، انه يذكرني بمحمد علي . . حين نزع من لحية  
الدقتر دار ، وهو يجالسه شعرة واحدة ، ثم أتبعها بعد هنية بشعرة  
واحدة أخرى ، تعجب الرجل المتتوف اللحية في سره من مسلك  
الباشا ، وظنه نوعا جديدا من نزواته في الممازجة ورفع الكلفة ،  
نوع مخيف . . ولكن لا ضرر منه . . وليس من ورائه عذاب ،  
فلذا بالباشا يقبض على لحية الدقتر دار فجأة ويشدها بعنف ، فصرخ  
الرجل صراخا عاليا من شدة الألم ، فابتسم محمد علي وقال له : « هكذا  
يكون تحصيل الضرائب واحدة . . واحدة . . »

لحقني على هؤلاء الضحايا جميعا ، على بيوت كثيرة يسودها النكد  
من لوم الزوجة لرجلها أنه يصرف ثلث مرتبه في شرب الدخان ،  
فيقول لها انه يفعل هذا من شدة ضيقه بلومها . . من أى طرف  
تنحل هذه الحلقة المفرغة . .

لحقني على باعة الصحف ، تبرز عظام صدورهم من فتحة  
جلابية لا تتغير شتاء وصيفا ، تتقد في عيونهم نظرة متحفزة ،  
كنظرة الوحش الضاري ، يلوذون جماعات . . جماعات بفنار  
تحتجى فتيلته دون هبابها داخل جراب علبة سجائر فوق لمبة  
سهارى في كشك بائع سجائر ، في رأسهم حساب لا ينقطع ، فلذا  
تبين لهم أن مكسبهم قد بلغ ثمن سيجارة واحدة لم يذهبوا لشراء

رغيف ، بل جروا جريا لشراء سيجارة واحدة فرطامن عند الفنار  
حيثند تنعقد الهلاهة والخدر على أجنانهم .. ولكن إلى حين ..

عجبي لهذا الأفندي الذي يندس بيننا في أوتوبيس .. كعلبة  
السردين إذا أقمتها على حافتها ، في يده سيجارة مشتعلة .. يظل  
يرفعها فوق الرعوس ويهبط بها إلى الركب ، وفمه يلاحقها يلتمس  
قبلتها وهو غير عابئ يغيظنا ولا يخوفنا من اللهايب بسببه إلى الرفاء ..

عجبي لنسوة شريفات في بلاد احتلها العدو في أوروبا ، تحملن  
الجوع بلإباء وشحم ، ورفضن مد اليد من أجل لقمة ، ثم فرطن في  
عرضهن من أجل سيجارة واحدة من يد العدو .

عجبي لكمسارى يتركنا نتقلي في عز الشمس .. وهو يزاحم  
الزباين أمام بائع سجائر مشككاتى ليخطف منه سيجارة هي السر  
البائع في جريان ريق زمارته بعد جناف ، يتنازل للسائق مكرها عن  
شفطة أو شفتيتين سدادا للدين سابق محسوب بعدد الأنفاس ..

كل هذا من أجل شيء دخل حياتنا ومسيطر علينا ، يكفي للدلالة  
على سلطانه أن اسمه أصبح رمزاً لأجر القواد ، وتحليلا للرشوة :  
حق الدخان ..

( « النساء » : ١/٥/١٩٦١ ، ص ٦ )

## أين تاكل اليوم؟

**من** أكبر النعم التي أحمد عليها ربي أنني آكل في بيتي من طهي زوجي ، حتى طبخة العدس تبقى لذيلة في فمي ، ولكن الإنسان الغشوم لا ينجو من البطر ، إنه يستهين بالنعمة ويفسدها ، فأقرر أحيانا أن آكل في البلد وحدي ، على حل شعري ، فلا يتلخر على حقاب البطر ، وأقع في ورطة عويصة : أين آكل ؟

لست من كبار الأغنياء حتى أقصد أحدهذه المطاعم المبهجة التي تجدد فيها نخادما في زى بطل من أبطال ألف ليلة وليلة يستقبلوك باحترام ويفتح لك الباب ، فإذا جلست أحاط بك كالعنكبوت شحذ آخرون ، هنا مكلف بإحضار الماء وحده ، وذاك مكلف بإحضار السلاطة وليس غير ، وثالث مضطرب لا ندرى ما عمله ، وشيخ المنصر جرمون أجنبي له عين فارزة كعين الصقر ، وحتى لو ذهبت تغسل يديك وجدت رجلا

أو صبيًا غلبانا محكوما عليه بالسجن المؤبد داخل مرحاض ، يتناولك بأدب منشفة وينفض لك ثيابك ، فإذا لم أشأ أن أكون صدخا قليل الحياء زاد البقشيش وحده على ثمن أكلة ، كان أدنى بقشيش فيما مضي قرش تعريفة ، أما الآن فلا بد من قرش صاغ ، يرضى به صبي المرحاض وهو يرمقه وإن زعم تجاهله وأنا أرن به على الطبق تأكيدا للدفع وعدم الزوغان ، ينبني أن تضاعفه للسقاء وتضاعفه ثلاث مرات لحامل أطباق السلاطة ، أما الجرسون الأجنبي فابتسامة الشكر عنده لا يقل ثمنها عن شان كامل وبقية قروش الفكة ، هذا علاوة على ١٠٪ يحسبها على الفاتورة التي لم أستطع قط أن أراجع أرقامها من شدة نخجلي ورغبتى أن أكتسب صفة الجنتلمان في نظر أصحاب هذه المطاعم ، وأخرج في كل مرة من المرات النادرة التي أذهب فيها لهذه المطاعم وأنا أسأل نفسي ، كيف وأنا عامل حسابي على أن أصرف خمسين قرشا على الأكثر قد دفعت ما يقرب من جنيه كامل .

وهناك شيء آخر يغيظني في هذه المطاعم . الطبق الذي أمامي اسمه في عرف المنطق وعند جميع الناس لحمه وبطاطس ، ولكن اسمه على القائمة : صدر حمل رضيع متبل على طريقة فينيسيا مع حضارات الموسم بالزبدة صوص ماديير ، انتقامي الوحيد من هذه المطاعم أنني أدرس نخلة في جيبي كل ما أجده أمامي من أعواد تسليك الأسنان !

إذن فلنهرب من هذا المطعم أو هذه المصيدة ولنهبط من القمة إلى السفح ، سأذهب إلى محل ماندويتش ، المفروض أن الساندويتش هو رخيص ، ولكنك ستجده لقمة ، وهذا الطرشي الذى يأتى مستخدماً منبرياً فى طبق صغير مبلل ، امتحان عسير لحاسة الذوق فشلت فيه كل مرة ، فلا فرق عندى بين طعم البلزر من اللفت من الخيار ، لا يبقى فى فمى إلا اسعة الخل ، حين أذهب أطلب اثنين من الساندويتش أحسبهما واجبة كافية ، وإذا عملهما الوحيد هو إسالة الريق وفتح الشهية فأطلب اثنين آخرين ثم يصعب على أن أترك بقية الطرشي فأطلب خامساً لأخذ بحق حفلة . الثمن زاد عن ثمن أكلة رسمية بشوكة وسكينة وفوطة . ثم اننى أفرغ من الأكل فى غمضة عين ، مع أننى كنت أطمع أن يسرق منى ساعة الهجرة ، فأخرج وأنا حائر ، لا يزال على موعد حفلة الساعة الثالثة فى السينما ساعة ونصف فأقصد محل حلوانى أو قهوة ، ويكون لثمن الأكلة دلایل لا بد منها .

لنذهب إلى محل آخر هو أيضاً فى السفح ، مطعم فول وطعمية على الأقل لاداعى لوجع الدماغ وتعب الرجلين ، إن تسير خطوتين فى أى مكان فى القاهرة حتى تجد مثل هذا المطعم وكل واحد صورة طبق الأصل من الآخر : نصف باب على يمينه أو يساره لوح زجاج يزينة من ورائه صف ضئيل من علب السردین ،



تترعمها حبة كبيرة من الطماطم والبائع النعسان واقف وراء قدرة  
فول من النحاس « وأنت حر أن تعتبر كلة النحاس وصفا  
للقدرة أو الفول » .

الصمت عادة يخيم على الدكان ، المقروض أنك تدخل  
وتأكل وتحزج وكل ما فيك ينطق بأنك من الملعبين في الأرض ،  
ليست مطاعم الفول محلات فنطزية وفرشة ، بل هي مداود تب  
داخل حاصل ، وتدخل وتميل رأسك وتمضغ وتملا بطنك ثم  
تخرج للدنيا من جديد « لأنني أحب الفول الملمس ، إنه نعمة  
كبيرة فهو غذاء دسم شهى ونخيس ، طبقه من أنظف المأك  
حين يكون جيبي لا يعينى على المطاعم الهايلابف ، ولكن ما  
هذه الفوطة السوداء في يد البائع النعسان ؟ ما هذه الشوكة  
الصفيح المغسولة بالماء لا بالصابون ؟ ما هذه الشطة التي تحتاج  
لنصف كيلو منها لتحس بلسعتها ؟ ما هذا الملح الأغبر المتبلل  
بعرق أصابع مصبوغة بالنيكوتين ؟

كل هنا يهون ولكني أقسم لك أيها القارئ العزيز انني رغم حبي  
للفول الملمس يحدث لي مرارا أن أذهب مجدا مشتاقا لمطعم فول فإذا  
هللت على بابه صلتني صفة قوية ، هي هذا الحزن الشديد ، هذا  
الانقباض الخفيف هذا الوجوم المرعب ، : انقلبت الصفة إلى بصقة  
في وجهي ، أشعر أنني لو دخلت سأحمل كل هموم الدنيا على رأسي .

هناك مطاعم فول شعبية لها أسماء لمعت في عهد مضى ، الفول فيها  
أجود وأنضج لأنها لا تزال تدمسه في قدر من الفخار في موقد  
حمام ، لا في قدر من النحاس على وابور برعموس ، أتمنى أن  
أكل فيها ولكنى لا أستطيع لأشياء ، إلا أنها تشبه حربة  
أتوبيس من شدة الزحام واختلاط أذرة الناس بعضها ببعض لأنها  
تبيع للمارة أكثر مما تباع للزبائن الجالسين . فهل أهرب من أتوبيس  
لأقع في مطعم فول ؟ .

كان لى في عهد مضى مطعم فول بجوار سيدنا الحسين ، لا يزيد  
حجمه عن مترين في مترين ، ثلاث موائد لا غير وكان صاحب  
الديكان رحمه الله رجلاً فكها يضاحك الزبائن ويعاينهم بل  
ويشتمهم أحياناً فبكت به سعيداً .

وتشتاق نفسى حين أكل في البلد على حل شعري أن  
أملأ بطنى بلحمة الراض وفتة كوارع ، تحريشاً للمعدة فيما  
أزعم ولكنى لا أستطيع أن أزال منأى ، فلن أكلها في الطريق  
من الباعة السريجة الذين أصبحت كلمة « يا جابر » مارة  
مسجلة لهم وحدهم ، ليس لأيرهم مثل هذا القفص الأجوف  
المستدير يبلغ قامة الرجل ، إنهم يبيعونه بارداً فيتمحرش بالفم  
ويتلکع به : ثم إنهم مهرة في تجريد اللحم حتى تصبح جمجمة  
الخروف أمامى في شدة ، من بياض كالحى هى أبلغ شيء

هندي في التذكير بتراب المقابر ، أما المطاعم التي تباع لحمة الراس  
فنوهان ١ الأول يقلد مع الأسف مطاعم الطبخ فلا أجد فيه جو  
المسط الذي ينبغي أن يشبه جو حمام تركي والثاني قديم أصيب  
الزمن عنده بالشلل ، دخلت مسطاً من هذا النوع في ماعة متأخرة  
من وقت الغداء فوجدت الصبي مشغولاً باعداد وجبة العشاء ،  
وكان يقشر البصل والتوم بين ساق على الأرض . فكانت ، أكلة  
بلعمة جرت على اتحلين ،

ماذا بقي أمامي بعد ذلك . بقي الوسط بين القمة والسفح ، وأنت  
تعلم أن لكل قاعدة استثناء ، فالقاعدة التي تقول إن خير الأمور  
الوسط قد تحقق في مطاعم الوسط استثناءها ، انها تقدم لك قائمة  
من ١٦ صفحة على الأقل فيها كل ما يخطر ببالك من تفانين الأكل ،  
ثم يقول لك الجرسون بدون اعتذار وهو يشن بأنفه أن الأصناف  
الموجودة هي التي أمامها علامة فلذا حددت العلامات لم تزد على  
عشرة ، لا أريد أن أتكلم عن ضآلة المقدار الذي يأتي لك في  
الطبق ولا عن نوع المسلي ، وجليلته في الحق ولا رائحة الزفارة  
في الكوب والأطباق ولا دهنته مقبض السكين أو الشوكة ولا  
صبرك طويلاً من قبل أن يأتي طلبك حتى تأكل نصف الرغيف  
حافاً وإنما أحدثك عن الأصناف العشرة ، فقد حدث لي وأنا  
ذاهب أغسل يدي أن مررت في دهليز حقيق فيه نافذة كالطاقة  
تفصح مطبخ المطعم فلم أجد فيه إلا أربع حالي ضخمة واحدة بها

بطاطس محمر وأخرى بها بسلة مقلية وثالثة بها هبر من اللحم  
ورابعة بها مرق أحمر ، ومن ضرب إحدى هذه الحلل في اخواتها يخرج  
لك بقارة قادر حاصل كل طبق تطلبه . : ليس هذا بطيخ . :  
ولما هو تلتيق !

فأنت ترى مبلغ حيرتي حين أريد أن أكل على حل شعري  
خارج بيتي ، أتدري ماذا أفعل حينئذ ؟ أقف في الطريق وأدعو  
الله سبحانه أن يمر بي صديق مريش يعزني ويعزمني أن أكل  
معه على حسابه ، ولو في مطعم فول ، ولو في مسط فإن دفعه  
للثمن ولا أقول صحبته سينسيني كل تأفف بغض لا تقوى على  
مغالبة نفسي الضعيفة المترددة .

( د المساء : ١٧/٤/١٩٦١ ، ص ٦ )

## الوصايا العشر في سوق الخضار

**دهشت** حين دعاني صديق لأدية غداء عنده، إذا كنا في أواخر الشهر ، ولا أعلم أن له صدياً آن أو أن ختانه ، ولا سمعت أن جاء لبنته مخاطب ، حتى ولا من الصنف الذي يكتب المذكرات — ياسائر استر — في ليلة اللخلة .. لعل صديقي قبين في نبرتي هذه الدهشة فاعتلر بأن المأدبة احتفال بنجاح ابنته بتفوق في شهادة التدبير المترلى .

وصلت إليه قبيل الظهر فوجدته قلقاً . وقال :

— من سخافتنا أن الرأى اتفق بيننا — استكمالاً للفرحة وبرهاناً على صدق النجاح — أن تتولى بنبى الطبخة من طقطق لسلام عليكم لاستجلى من أمها نصيحة ولا تفرض على الخادم مساعدة ، فتبدأ بأن تترل للسوق لتشتري بنفسها اللحم والخضار والفاكهة ، وقد

خرجت منذ أكثر من ساعتين وهامى لم تعد للآن ، فمتى تطبخ ومتى  
تأكل ؟ أدعونا لك لغسوة أم احشوة ؟

وبعد قليل دخلت بنته وهى تلهث ، محملة بالأكيام والفائف ،  
وجيها مشرق بسعادة كبيرة ، ولكنى لم أر قبلها سعادة تنقلب فى  
غمضة عين إلى غم وحنق ، أرادت — افتخارا بشطارتها — أن تكشف  
لنا عن مشترياتها .

ففردت لنا أولا لحافا أغبر يشبه نسجه هذا الورق الذى تصنع  
منه نعال الأحذية هذه الأيام ، داخله هبرة جيلاتينية منكشة ، كأنها  
سقط جنين مكسوف من عاهة تعرت أمام الناس ، يختلط فيها الدهن  
بالشفة بعروق تفوق أجود أنواع المطاط ، ووسط العظام المشوهة  
بقسوة قطعة لحم حمراء كقص زجاج بقلد الياقوت فى خاتم من فضة  
علاها الصدا ، ومع ذلك فأشعته الكايبية تضرب إلى الزرقة ، قالت  
البنت بصوت خافت :

— عجيبة .. إنها كانت فى يد القصاب وهو يلويها كأنها اللوز.  
ثم قدمت لنا قرطاسا معما بأربع ثمرات منتفخات لها إلى التين  
نسب قريب ، ومن تحت العمامة — طبقة بعد طبقة — زبل من  
حيات نحضر جامدة كالحجر ، وأخريات مبقورة البطن قد لفظت  
بطارخها المتهتك كأنما داستها البراطيش ، تفوح منها رائحة حامضة ،  
دقت البنت على صدرها ، وكادت الدموع تنزل من عينيها ،

وأقسمت لنا أنها حرصت بنفسها على انتقاء التين بيلها حبة حبة ،  
ووضعتها في القرطاس ، فماذا جرى ؟ إنه سحر ولاريب !

قلت لصاحبي : لا تبئس ! إن الذي حدث لابتلك الصبية  
الغريرة — يتكرر على يوما بعد يوم ، ولما رأيت أني لست ومجدي  
في البلوى وأن هناك مثل ضحايا كثيرين هم من أطيب الناس وأسلمهم  
طوية — والطيبة والخيبة من المترادفات ! — تمنيت لو عكفت على  
تأليف كتاب أسميه « عشر نصائح أخوية في شراء الفاكهة المستوية »  
وأرتبه كما يلي بادئا بمسألة انسانية تهمني أكثر من غيرها :

#### النصيحة الأولى :

إن كنت ممن لا يؤمنون بأن الحسنة الخفية هي في البيع والشراء  
فإياك أن تشتري الفاكهة وأنت جالس على القهوة من بائع سريع  
فلنني أهجر مراراً مقعدي فراراً من محنة رجل جالس ومعه زمرة  
من أصدقائه أمام الأقداح على مائدة فوق الرصيف ، فيمر أمامهم  
صعيدى ، معروق ، جلد على عظم ، وعلى رأسه سلة من ثمار المانجو  
فيناديه صاحبهنا ويبدأ فصاله ، ثم يتلقفه الآخرون ويتقاذفونه كالكرة  
وبعد محاورة تدوم نصف ساعة ، تهبط شقة الخلاف إلى قرش  
تعريفه واحد ، والبائع يذكرهم أنهم أسياد ، وهو أب له زرية من  
الأولاد ، فيكون جوابهم أنه مخادع مكار ، وأنهم غير أغرار ،  
كل هذا والحديث عن مهرات ومغامرات والأقداح طالعة نازلة :



### النصيحة الثانية :

إياك أن تشتري الفاكهة من عربة يد في الليل تحت المصباح  
اللوكس ، أصحابها لهم صناعة عجيبة في رص جدران بضاعتهم  
بفاكهة جميلة تغرى السائرين ، وفي الحوش السماوى ثمار معطوبة  
تستر بالظلال ، هى التى سيبيعونك منها مما حاولت ، وهم لا يكفون  
ليلا ونهاراً عن حكه بالأصابع وتلميمه بملابسهم القلوة وربما  
بريقهم أيضا ، : الله أعلم :

### النصيحة الثالثة :

إذا اشتريت من دكان فلإياك أن يغيب الكيس عن نظرك  
لحظة واحدة إذ يتحقق في ساعته بقدرة قادر تناسخ للأكياس  
إذا عز تناسخ الأرواح

### النصيحة الرابعة :

إياك أن تؤمن بحيلة ثبت عندى مرارا فسادها ، بأن تبدأ فتلقى  
على البائع تحية رقيقة فيها استعطاف ، ثم تميل على أذنه فتهمس له  
أنك ستزيد فى الثمن قرشين من أجل أن يتركك تختار كما تشاء ،  
إنه سيرحب بك على الفور ولكن ثق أن الكيس الذى ستعود به إلى

دارك ان يختلف مقدار ثمرة واحدة عن الكيس الذى لم يبلغ صاحبه  
دلمه العلاوة التى هى أشبه بالرشوة .

#### النصيحة الخامسة :

إياك أن تؤمن بأن لقب « زبون قديم » يرتب لك على البائع  
حقوقاً تزيد على حقوق الزبائن الطيارى ، وما أصدق المثل البلدى  
القاتل : اشمنى جايب اللحمة مشقة قال اكن ابليزار صاحبي .

#### النصيحة السادسة :

إياك أن تستعمل سلاح التهديد بأن تقول للبائع « إذ لم ترضنى  
فلن أعود إليك » فهو مثل العقلاء جميعاً يترك أن هذا هو أسخف  
تهديد ، مامن مرة بلأت فيها إلى هذا التهديد إلا شعرت أنني أبوخ  
الناس .

#### النصيحة السابعة :

إياك أن تشتري من دكان قبل أن تدرس جغرافيته وتضاريس  
سواحه ، ففى أغلب الدكاكين نوحان من الفاكهة ، واحد « بايت »  
ردىء للعبط والهلأفيت ، وآخر جيد طازج مخبأ تحت الرفوف أو فى

الأركان ، كأنما البائع غانية لا يسرها أن تهب نفسها إلا  
للصائد الماهر .

#### النصيحة الثامنة :

أما في بواكير مواسم البطيخ فأياك أن تشتري منه قبل أن تقرأ  
سجل المفاوضات بين مصر وإنجلترا لأنك ستحتاج إلى مفاوضة صاحب  
الدكان مفاوضة طويلة بين الكواليس ، ثم التظاهر بتبادل العرض  
والطلب في جلسة علنية ، وإذا تفضلت أيضا وقرأت تقارير مكتب  
مكافحة المخدرات فلأنك تحسن صنعا ، إذ ستعرف من أى جنس  
من الناس أصبحت ، وإذا ظفرت مع ذلك ببطيخة واحدة حلوة  
حمراء من كل ثلاثة قرع مواسخ فاعتبر نفسك محظوظا .

#### النصيحة التاسعة :

إياك أن تقع مثل في تجربة لم يدفني إليها ذكائي وحيلتي بل  
تحريض صديق مخلص مسامحه الله ، حكم بتغيبى لأننى لا أشتري  
الفاكهة مثله من سوق الجملة ولا أطيل عليك - وصف العناية الذى  
لقيته ذلك اليوم من الزحام والصراخ والعرق والغبار والذباب ونتش  
أطراف ملابسى ، وحملت السلة إلى الدار قلما حسبت ثمنها ونفقة

نقلها دع عنك الوقت الذى ضاع منى - وسجلته لايزيد عن ثمنها  
عند بائع الفاكهة تحت حارى .

#### النصيحة العاشرة :

وأخيرا إياك أن تخرجل واقتد بأصديقائى حين أدعوهم للأكل  
عندى وأقدم لهم سلة فيها مختلف الفاكهة فلا يقنعون بصنف واحد  
أو بمقدار مهلب ، بل يأكلون منها كالمفجوعين ، لا استغلالا لى أو  
نكاية بى بل انتقاما فى شخصى الكريم من جميع بائعى الفاكهة .

أليس من العجيب أن شروة فاكهة - وهى مسألة هينة فى  
جميع البلاد - تصبح عندنا مشكلة عويصة مجهدة تحتاج إلى بصر  
وذكاء وصبر وخبرة كبيرة فى كافة وسائل الغش .

( « الأهرام » ، ١٨/١٠/١٩٦٠ )

## حجاب لِذَوَامِ المحبَّة !

**لست** أدري لماذا نخجل إلى اليوم أن سرا باتعاً قد هبط على من كرامات أبو معشر عميد علم السحر واليازرجا وأول من تعلم - والعلم شيطاني طبعاً - لغة شمهورش كورش ، ملك الجان ، فقد أحسست وأنا أهم بكتابة هذا المقال أنني مدفوع بقوة خفية لأن أعمل لك عملاً ، لا تخف واصبر ، فلن يأتبك مني إلا كل خير ، العمل هو أن أكتب لك بالهجان حجاباً لا للمقابلة الحكام ، فلأني أولى به لنفسي أن عرفت كيف أكتبه ، بل هو لضمان دوام المحبة ، وإياك أن تظن أنها محبة بينك وبين الجنس اللطيف ، فليست هذه يا أخي مهتني ، وإنما لدوام محبة أوبرك وأجدي ، هي المحبة التي تربط بينك وبين أصدقائك ، فلي في هذا الموضوع تجارب غير قليلة بفضل ما ألقاه على يد أصدقاء لي حميمين ، يخلصون لي الود

ويريحون أعصابي إذا جلست إليهم أتخفف من هموم الدنيا وأطلق  
نفسى على سجيتها ، فهم فى بعض الأحيان يقفون منى مواقف  
عجبية تجعلنى أعانى ثورة عارمة مكتوبة وأود أن أطبق على زمارة  
رقبتهم من شدة الغيظ ، وأقسم أن عيونهم لن تكتحل بعد برؤية  
طلعتى البهية .

والغريب أن هذه المواقف ليست بذات خطر ، وليس من ورائها  
أذى ، ولا تم عن لؤم أو مكر ، بل هى هنات وليدة الغفلة وحدها ،  
وإن كان لها قدرة هائلة على شعللة أعصابى وتسميم قلبى بالحقن  
والموجدة . والآن سأروى لك هذه المواقف بالتفصيل فقد تقع أنت  
أيضاً فى شراكها ، وبذلك تتجنب الإساءة عن غير إرادة إلى  
أصدقائك فيغضبون منك كما أغضب ، فما أظننى بدعة بين الناس .



### الموقف الأول : لو كنت قلت لى

● يمضى على شهر كامل وأنا أبحث عبثاً عن خادم ابن حلال ،  
حتى أزهد من الأكل المحفوظ فى العلب ، وتتكوم الأطباق الزفرة  
فى حوض المطبخ ، ويصبح التراب فوق البساط أكثر من تحته ، وألبس  
آخر قميص نظيف ولو نقصه زر ، وأسأل نفسى : ألا وسيلة للاهتمام  
إلى خادم يا عالم ؟

حينئذ أقصد صديقاً لى ألقأ إليه ساعة الضيق لأفضفض إليه بهى<sup>١</sup>

وان يكن في قلبي أمل غامض أن أجد عنده أيضاً حلاً لمشكلتي كأنني  
سأكشف عنده على ورقة يانصيب ، من يلري لعلها تضرب ،  
فما أكاد أجلس إليه وأفتح فمي بحكايتي حتى يهب واقفاً  
ويضرب كفا بكف ويقول لي بصوت عال كأنه يعاركني .

— يا خسارة ؟ لو قلت لي هذا بالأمس ، بالأمس فقط !  
فيبط قلبي إلى قلبي وأحس أن روعي تعلقت بخيط ينقطع  
أمام عيني وأتمم بمسكنة .

— قسمتي كده !

فلا يرجعني أو يتركني لمصيتي أهون شأنها وأنازلها وحدي ، بل  
أجده وهو الأبكم عادة تهبط عليه شحنة كبيرة من البلاغة والفصاحة  
ويهلر الكلام من فمه كال موج ، لا يحس أن كل لفظ له على وقع  
السوط الجلابي :

— لو قلت لي هذا بالأمس ، بالأمس فقط ، فقد سافرت  
أنتي أمس لتلحق بزوجها في أوروبا فتنازلت وهي باكية عن خادمها  
لجارتها مع أنها تستقلها ، كنت أنت أولى به ، يا خسارة ! خادم  
وأى خادم !

يتيم ، مقطوع من شجرة ، يودع عندك أجره ، طلوقة ، الباركيه  
كالمرأة ، لا يكتفي بمسح التراب عن النوافذ بل يأبى إلا أن يغسلها  
كل يوم بالليفة والصابونة ، يصل كالرعد إلى أقاصي الحى كله لا إلى  
الجيران النائمين وحدهم وقع عصاه على البساط وهو يتفضه من النجمة

على سور الشرفه كل صباح ، لايبالى بمن يمر تحته ، فى المطبخ البلدى  
أسطى ، وفى الأ لا فرانكا برىمو ، فطاير إيه وحلويات إيه ، تصور  
انه عثر فى الطريق بالليل على محفظة بها مائة جنيه فقلدها بها إلى أنتى  
وهو يقول : حمد الله بينى وبين الحرام !

(أسفت فيما بعد أننى لم أسأل صديقى ماذا فعلت أنته بهذا  
للبلخ) وكل هذا بكم ؟ بثلاثة جنيهات وليس خير ، يا مبارك .  
أنا مل صديقى وأقول فى نفسى .

يارب ! هل فى تألق وجهه ويريق عينيه دليل على أن مبعث  
فصاحته هو تشف رخيص مكتوم من أن الفرصة النادرة قد فاتت على  
من تحت أننى ثم هربت ؟ وهل مبالغته فى الاشادة بفضائل الخادم  
هو تفنن منه فى شكشكتى بالإبرة ؟

يملؤنى بالرغم منى حق عليه ، وأنصرف وأنا أياس الناس  
طرا ، لخيايتى وقلة بختى ، وأصمم من قبيل الانتقام لنفسى ألا  
أعود لزيارته .

الأمل فى حجابى أن يصونك من الوقوف مثل هذا الموقف من  
صديق يبحث عن خادم ، أو شقة خالية ، أو طقم سفرة يخرج  
بيت ، فلا تفتح فمك بكلمة عن خادم أختك وتكفى على خبره ماجورا ،  
وتقول لصديقك الذى يغرق فى شرب ماء كلاما مثل هذا :

— الخلم ؟ هذه مشكلة سهلة ، لانهم من كثرتهم كالحلم على  
القلب ، أنا واثق أن البواب أو اليقال أو أحد الجيران سيجد لك خادما  
واقفك .



فهذا مما يريح أعصاب صديقك ، ويجعله يرضى عنك ، وإن  
مشت تحولت إلى كذب متعمد لا يضر ، فتقول له :

دع لي هذه المسألة ، فلاني في ظرف يومين إن شاء الله سأجده  
لك ما تطلب ، اعتمد على .

وهذا كلام تهجيص في بلايص ، ومع ذلك يكون له أطيب  
الوقع على قلب صديقك أما إذا صدق كلامك ولأملك على خلفك  
لوعذك قل له : إنك كنت مريضاً ، أو إن أختك هي المريضة وأناك  
ذهبت للسهر عليها ، وسيكون من أسمع الناس ويعق لك أن تقاطعه  
إذا ذكرك أن أختك قد سافرت لأوروبا .



### الموقف الثاني : رحت اشتكى له همي رجعت شايل همومه

● يركبني في بعض الأحيان هم ثقيل من أزمة مالية أو زوجية  
(ولا أدري أيهما ألين من الأخرى) ، فتضيق بي الدنيا على سعتها  
وأحار ماذا أفعل لكي أخفف وقع الهم على قلبي . وأخيراً تقودني  
قلعماي وأنا مطأطئ الرأس نخافت الصوت إلى صديق على أمل أن  
أجد عنده بلسم الجراحى ، فما أكاد أجلس ويسألني مالك وأقص عليه  
قصتي من مطلعها حتى يقاطعني من أول سطر ويندأ على يشكو لي  
هو أشكالا وألواناً من هموم عديدة هي في نظري سخيفة تافهة لا يقاس  
أفظمها بهي ، ولكنه من أجلها يقيم الدنيا ويقعدها ، انه يكذب

الهموم تكبيراً يقطع أنفاسي فأحس أولاً أنني بخت بوانخاً شديداً ثم أحس بعد ذلك بإعياء مريع وأكاد أسأله أن أبيت عنده ، وبملاً في النفور من صديقي وأقول له في مري : يا أخي ! بجثت أنتخف عندك من همي فتحملتني أنت همومك ، لورأيتني مرة أخرى فأبصق في وجهي ،

حجائي سيساعدك على كتم حاجتك للتشكي ، فتنصت إلى صديقك القادم إليك كما تنصت العجائز إلى الحلقات المسلسلة في الإذاعة ، وتقول له إن أزمته مصيرها إلى فرج قريب ولا بأس أن تتمثل له ببيت مشهور وإن يكن ثقیل الدم قد أبلته كثرة الاستعمال على السنة الشحاذين .

اشتد أزمه تنفرجي قد أذن صبحك بالبلج  
وإن تعلمت بعد ذلك أن الشكوى حقها لله وحده فقد أصبح  
حجائي كترأ ثميناً ولا أطالبك بأجر عليه :

\*\*\*

### الموقف الثالث : خيار وفقوس

● انظر ماذا فعل بي أخيراً أحد أصدقائي واحكم أنت بنفسك  
وبلمتلك هل لي الحق أن أغضب منه أم لا ؟

طب على ذات يوم ساعة الغداء والخدم في أجازة مرضية ،  
وقد أعددت لنفسى بنفسى غداء من السردين والتونة والجبن والحلاوة  
الطحينية وأنا رجل على قد حالى ، وقد انقرصت أكثر من مرة

إذا طلبت رطل كباب وكفتة من الخاني المجاور فإنه لا يبعث لي إلا بالدهن والشفت ، والطبق خارج من ثلاجة لا من فرن . . ودعوت صديقي ليشاركني طعامي فجاس وأخذ يأكل بتأفف وتأفف ، ولكنه نسي نفسه حين حلا الحديث وتشعبت مسالكه فأكل رغيفه وقام يستلقي على الأريكة واضعاً يده على بطنه « عندك كازوزة ؟ » . وبعد ساعة اعمل لي فنجاناً من الشاي واعصر عليه ليمونة . وقبل أن ينزل سألتني : « عندك بيكاربونات صودا ؟ » والحلاصة أنه فعل كل ما خرج من يده وذمته من تفانين التلميح للازراء بهذه الأكلة والتوجس من أضرارها ، حتى ملأني الكسوف ووسلمت أمري لله ، وقلت له وأنا أودعه « لا بد أن أعوضك ، فتعال كل معي يوم السبت القادم »

ولكني لا أدرى كيف وجلتني معه عصر الجمعة في زيارة صديق لنا من الأثرياء ، جلسنا على مقاعد وثيرة في شرفة واسعة تطل على حديقة عطرة وأقبل الليل ونحن لم نقم ، وصمم صديقنا الغني أن نتعشى عنده فقبلنا مسرورين وهل علينا سفرجي في ثوب مخطط وعمامة بيضاء يحمل الأطباق والشوك والسكاكين وهي من أفخر صنف ، فمئنا أنفسنا بعشوة منهشة ، ثم غاب السفرجي طويلاً وعاد ومعه أطباق من السردين والتونة والجبن والحلاوة الطحينية ، وقال لنا صاحب البيت إن هذه هي عادته في العشاء ، ونصحنا أن نخلو خلوه إن أردنا السلامة من حموضة المعدة وتصلب الشرايين والمهجة الصليرية والبولينا ، فما تظن قد فعل صديقي ؟

رأيت له شدة دهشة يتوثب في مقعده من شدة شهوته للطعام  
ويقبل عليه بملأ به فمه ، ويقول لصاحبنا الثرى : هذا هو أفضل  
حشائو أخف أكل على المعدة وأنه مثله لا يأكل إلا هذا بالليل صيفا وشتاء .  
ولم نشرب بعد الأكل لا كازوزة ولا شاي بليمون أو بغير ليمون  
ولا كريبونات بيضا ولا سودا ، بل كل الذي شربناه قهوة في فناجين  
لا يزيد حجمها عن الكستبان لأنها طاقم « سيفر » من مخلفات قصر  
الخليفة عبد الحميد ، عليها طغراء سلطاني ، يا فرحتنا !

وانصرفنا وصديق نشط ومرح ، ومد يده ليودعني فأخلفتها  
وأبقيتها بين يدي وأنا أصوب نظري إلى عينييه أحملها شيئا من اللوم  
وأخشى أن أقول . شيئا من الاحتقار ، وانكسر قلبي . . وأخيرا  
هداني ربي إلى أحسن ستار يتزل على هذا الفصل البارد فقلت  
لصديقي وأنا أشد على يده وابتمسم : على فكرة ! أنا مسافر غدا إلى  
الاسكندرية فلنؤجل غداءنا إلى موعد آخر نتفق عليه فيما بعد .  
وكان هذا آخر « وش » الضيف . فلم أقابله بعد ذلك ،

وسيجنبك حجابي فيما أومل أن تجعل من أصدقائك من هو  
خيار ومن هو فقوس . .

### الموقف الرابع : الخاطئ المائل

● ليس هذا الفصل من تجاربي اللدائية وإنما حدث لصديق لي يقول عنه بعض معارفه وهم قلة إنه طيب القلب ويقول آخرون منهم — وهم كثرة — إن طبيته ضعف وعجز ، جاءني ذات يوم يكاد لا يحسن ضبط دموعه لا من جرح نزل به بل من شدة خيبة أمله في صديق حميم له ، يجمعهما معا العمل في مكتب واحد تحت إمرة رئيس جاهل غليظ الطبع قليل الأدب ، ولترك الكلام لهذا الصديق المسكين . قال :

— « أنا لا أنكر أن هذا الرئيس يسىء معاملتي ولكنه — والشهادة لله لم يرتفع توبيخه، لي إلى حد الإهانة ، وهو أيضا — والحق يقال — يفتكرني بالمناكفة يوماً وينسأني أياماً . أما هو مع صديقي فوحش كاسر ، ولا أدري لماذا ؟ كلما دخل عليه سبه وهزأه ولعن سنسفل أجداده ، هذا شأنه معه كل يوم كأنما طعم العيش لا يحلو لهذا الرئيس إلا إذا غمسه في إهانة صديقي ، فريسته السهلة ، وكنت في أحيان كثيرة أسعى إلى تطيب خاطر صديقي وأصبره على بلواه ، فكان يتهرب وينكر ما يحدث له ويعدل بالحديث إلى موضوع آخر ، فأعز وتصرفه إلى الخجل ، ولعل اليوم قد بالغت في الخنوع عليه ، فهل تنوى ماذا كان رده ؟ بعد أن أطلق لسانه في سب هذا الرئيس بأفحش الألفاظ التفت إلى وقال :

أتمنى أن يقع هذا الوغد السافل في نكبة ، إننى أكرهه أشد الكره ، لا لشيء إلا لأنه يسيء معاملتك وأنت أطيّب الناس وأرقهم إحساسا ، ولو فعل معى مثل ما يفعله معك لبصقت في وجهه وكسرت له رأسه وأفهمته مقامه ومن أكون أنا ! »

ورفع إلى صديق المسكين وجهه محققا مغیظا وقال : الآن أدركت معنى المثل القائلى : الجدار المائل تنط عليه الكلاب .  
وأدركت أنه يصف بالكلب صديقه لا رئيسه ..

وأرجو أن يكون فى حجابى وقاية لك من مثل هذا العار ان حملتك حماقتك ذات يوم على أن ترمى صديقا ضعيفا بدائك ثم تنسل أنت ..

إذا فرضت أيها القارئ العزيز من هذا المقال فاقطعه إن أحببت بالمقص وطبقه أربع أربع ، مرة ثم أخرى حتى يصبح فى حجم الطعمية ، وضعه فى كيس أخضر ، وعلقه من رقبتك على لحملك فوق صدرك ، أو اعدل به إلى ما تحت إبطك لأنه حجاب أكيد المفهول أقلمه لك مجانا لضمان دوام المحبة ولك أن تعتز به فسيكون أول حجاب لا يكتب بالسريانية وبنغمشة الفراخ بل بلغة عربية وبخط منمّم مقروء وإن وجدت فيه أغلاطا مطبعية قليلة فليس اللخب ذنبى ، اعتبرها فاسوخة تزيد من قيمة هذا الحجاب !

( « النساء » : ١٥ / ٥ / ١٩٦١ )

## يا أولاد الحلال

**أحب** أن يتطوع إنسان ابن حلال يكون مغرمًا بالقصص والأفلام البوليسية من هتشكوك ونازل ليسلى إلى مهر وفا ويبحث لي عن — أو يقبض لي على — شخص يلاحقني كلما فتحت الراديو لأستمع إلى أغانيها ، فأنا من كثرة الزن بسيرته على أذني أصبحت في أشد الشوق للقاءه ومعرفته والتمتع بطلعته البهية ، وأؤكد للصديق المتطوع أنني — على خلاف إخواننا الموظفين — ما ألقيت عليه الحمل إلا بعد أن شقيت بعشه أولاد حتى وحوحت وأعلنت على الملاء إفلامي وأصبحت كالإبلاط الذي لا يأخذ منه الريح شيئاً .

فقد أمضيت أياماً عديدة وليس لي من هم إلا مطاردته ، أتشمم كالكلاب السلوقية رائحته في محيط أصدقائي المشهورين

بمغامراتهم الغرامية ، أحملق في وجوه جيرانى ركاب الأوتوبيس  
الملتصقين بعضهم ببعض وفى جيرانى الجالسين فى آخر الصفوف فى  
السيما حتى ضاقوا بى ذرعاً ، أتبع فى الصحف باب « أجمل من  
رأيت » فأزور الحى الذى قدم لنا منافسة خطيرة لما رلين مونرو  
أو بريجيت باردو « وإن كان عمر بطلتنا يقل عن ١٦ سنة » ،  
أستعرض جميع لافتات كافة نقابات المهن الحرة على الأبنية القديمة  
فى الحوارى أو على الأبنية الحديثة على وجه الدنيا ، من أول شارع نقابة  
صرافى تذاكر الدرجة الثالثة بالسكك الحديدية . الى شارع نقابة المحامين  
فمن يستمع للأغاني معلور إذا وثق أن هذا الشخص معتر بمهنته  
وأن له عزوة كبيرة لا بد أن تؤلف لها نقابة يتوجها بحاجس إدارة  
محترم « عند الناس الأغراب لا عند الأعضاء » مؤلف من رئيس  
ووكيل وسكرتير وأمين صندوق ، فعلت هذا كله ، فلم أعثر  
لهذا الشخص على أقل أثر ، كأتى أبحث فى حجرة مظلمة عن قطة  
سوداء ليست بها .

ومع ذلك أستطيع أن أساعد الصديق المتطوع فأقدم له بعض  
المعلومات التى تجمعت لدى عن هذا الشخص ، فهو — أولاً —  
فايق ورايق ، ولا شك أن هذا الوصف سيساعد صديقى كثيراً ،  
لأن الفايق الرايق تلاحظه العين بسهولة لندرتة وسط الجموع الفقيرة  
المنشغلة بهموم النفس أو متاعب الدنيا ، وهو ثانياً ، يقف حادة  
تحت الشبايك وبالقرب من الأبواب وبالأخص بالليل حين يطالع القمر  
على العشاق ، وهو ان سار خطوة فلتتبع لإنسان آخر ، قد يكون



رجلا وقد يكون امرأة ، فهو يضرب ضربته زوجاً زوجاً لا فرداً  
فرداً ، ولم تصبه بعد علوى التخصص ، وهو لا يلاحظ همساً  
يدور ولو من بعد سحيق بين رجل وامرأة إلا طار إليها وكان  
ثالثهما ، وهو - أخيراً - مع أنه فائق ورائق ليس بين الناس من  
يضارعه في الصفاقة ، إنه مغرم بمحشر نفسه فيما لا يعنيه ، هو  
كالفتوات لا يطيق أن يرى سرائق فرح لم يدع إليه إلا إذا هذه  
وحطم الكلوبات ، ويظل طول عمره لا ينشف ريقه من الرضى  
ويظل يضرب في حديد بارد فلا يكل ولا يمل .

هو وراكوراك والزمان طويل .. وهو أكبر متعهد مستعد لتقديم  
موضوعات لمؤلفي الأغاني وإن لم يكسب من خدماته الجليلة ملياً  
واحداً لا عن حق التأليف ولا عن حق الأداء .

فهل أدركت أيها الصديق من يكون هذا الشخص ؟ إن لم ترض  
إلا بالافصاح هرباً من وجع الدماغ في التخمين فاستمع معي لهذه  
العينة التي اخترتها لك - كل شيء كان من أغانينا الحلوة التي تدور  
على كل لسان :

العوازل ياءا قالوا بتحب ايه . .

مررت على بيت الحبايب من غير عزول أو رقيب :

كان عهد جميل ، حاسد وعزول .

اخترلك خيرة - يانا يالعزال .

قول ياعزول مهما تقول - لاحتا حبايب وانت عزول

وإن كان على قول العزال - خلى اللي يقول يقول :

العزول فايق ورايق .

يا عوازل فلفلوا . . .

هذا هو العزول الذى أضنيت نفسى فى البحث عنه فلم أنجح ،  
وأرجو من الصديق المتطوع أن يقرض لى ولو على عزول واحد ،  
واحد فقط ، حتى حتى أشقى غليل الشوق إلى لقائه .

ويتبين من أغنية « يا عوازل فلفلوا » أن العزول يدخل أيضاً فى  
اختصاص الأستاذ أحمد رشدى صالح مؤرخ الأدب الشعبى من  
حيث مقبرة هذا العزول على إثارة نوع طريف من الرديح البلدى ،  
فأنا أريد منه أن يسجل لنا بالصورة والصوت للأجيال القادمة  
أنموذجاً قبل أن ينقرض لهذا الذى يطلب من العوازل أن يلفلوا  
على أن تبين الصورة حركة الصحن الذى يمثله دوران يد مضمومة  
على كف مبسوطة يقطعه بين الحين والآخر دق من اليد  
على الكف ، يصحبه لمعان العين وتلعيب الحواجب وشدة الخلود  
وكشف الأنياب وترقيص الجذع كله رقصة خفيفة . . المفروض  
أن الذى يفعل هذا كله شاب عاشق هو أفندى متعلم لابس بللّة  
وجاكتة . . . ويترنم وهو يصحن القفل بأغنية تصلح لترقيص  
القرود بالنقر على الدف وتلعيب الحواجب ، ارقص يا ميمون  
ارقص بلدى ! :

تري في أى عهد أسود تسالت كلمة العزول إلى أغانيها ؟  
الذى أستطيع أنؤكد أنه شعر الجاهلية وصدر الإسلام وأيام  
عز الدولة العربية قد خلا من هذه اللطخة ، وأرجح ، وإن لم  
يكن لدى دليل ، أنها ترجع إلى عهد انحطاط الشعر العربي إبان  
احتضار الدولة العباسية ، كان الشاعر حينئذ لا ينجل من أن يلطم  
الحدود ويشق الجيوب ويستغيث بطوب الأرض لترثي له وتبكي  
معه على نكبته حين لمح شعرة بيضاء في مفرقه . أتعرف سر  
النكبة ؟ إنه انصراف الغواني عنه ، وخياع قدره في سوقهن  
مهما بذل من مال أو صاغ من قصيد ، أنه بهذا الشعر يخطو  
الخطوة القصيرة التي تفصل المترف الهايف العاطل فارغ العقل من  
الرجولة إلى التخث . . وكان الشاعر يظن أن هذا الكلام الغث  
الردل هو اللطف كله ، وأنه خفيف الوقع على السامعين .

هذا هو العهد الذى كثر فيه الكلام عن الخضاب ووصف  
أنواعه وسحره ومفعوله الأكيد .

أعترف أن كلمة «العزول» تختفى شيئاً فشيئاً عن أغانينا والحمد لله  
ولكنها كالحشرات ، تترك وراءها سبانا يعيش في الشقوق ،  
فعمى أن تفعل فيها كلمتي هذه ما تفعله «المبيدات» في البق  
والصراصير .

( « المساء » ، ١٩٦١/٣/٢٧ : ص ٦ )

## مطاردة المتسولين

**صديقي** هذا من عادته أن يقرأ الصحيفة من أول سطر إلى آخر سطر ، لا لأنه محال على المعاش ولا لشدة تنهمه للمعرفة ، بل لشدة بخله ، فالسفة عنده ليس في الصرف وحده بل أيضاً في العزوف عن القبض ، ما دام قد دفع القرش ثمناً للصحيفة كلها فلا بد أن يعتصر منها حقه كاملاً وإلا فهو الغبن والحماقة .

سأحدثك عن نواحره في فرصة أخرى ، يكفي الآن أن تعلم أنه لو دخل سباق حواجز لصرف مائة مليم لتصنيع العبط والغشومية وتعتز بكل حاجز وجاء ترتيبه الأول من ذلحة الذيل ، ولكنه شأن أغلب البخلاء صاحب كرم جميل إذا كانت العملة التي يجود بها مجرد كلام ، ينسيك بطلاوته تقتيره . وهذا هو سر انصاف البخلاء بالظرف ونخفة اللص .

حينما جلست إليه في القهوة وجدته قد فرغ من قراءة الأخبار الخارجية والدخلية وبدأ يفلّي الإعلانات المربوبة ، فطوى الصحيفة والتفت إلى وقال بلهجة الخائر المرتبك : -

- أما حكاية ١ هل لحقني الخرف أم اختلطت ذاكرتي أم تشابهت الأيام وكف الزمن من الجريان أم الحقيقة أنحالتنا لا يتغير ، يحدث لي مرارا هذه الأيام بعد أن أصل إلى بطن الصحيفة أن أعود إلى عنوانها لأقرأ تحت تاريخها وأثبت أنها طازجة بنت اليوم ، إذ يخيّل لي أن كثيرا من الأخبار التي أقرأها فيها قد سبق - أنا متأكد - أن مر على بنصبه وفصه في الصحيفة ذاتها أكثر من مرة من قبل .

قلت له مقلداً بيدبا الفيلسوف : وكيف كان ذلك ؟

قال :

أنت مبخت ، إليك مثلاً بخبر منشور اليوم ، نخذ أقرأه بنفسك ثم اعطني عقلك .

قرأت من تحت أصبعه خبراً يقول « يقوم رجال الشرطة هذه الأيام بحملة واسعة النطاق لتطهير العاصمة من الشحاذين ، مع توجيه العناية إلى الشوارع القريبة من المحطة ومن فنادق السياح ، وقد عقد الحكمدار - لهذا الغرض ١ - مؤتمراً صحفياً . »  
الخ الخ ، :

قال صديقي ونظرتة متشبثة بعيني :

ينمترك ألم تقرأ أنت مثل هذا الخبر من قبل أكثر من مرة ؟ الحديد

فيه راجع إلى البراعة اللغوية وبارك الله في مترادفات اللغة العربية،  
فالمسألة هي مرة « تطهير » ومرة « مطارة » ومرة « أجلاء »  
ومرة « مقاومة » . على كل حال كلها ألفاظ تصلح لوصف  
المعارك الحربية التي يخرج لها الجنود بالبنادق والحدود ، ينشر هذا  
الخبر فأصبح لا أجد في المترو هذا الشحاذ الذي يمد لي حتى تلمس أني  
وسط الزحمة يدا كأنها خارجة من لوحات بيكاسو ، ولا هذا الصبي الذي  
انقلبت يده هو الآخر إلى خطاف بشع ومع ذلك تتناول القرش فلا يقع منها .  
فإذا بلغت وسط العاصمة رأيت لوريات ضخمة يتحلق  
فيها الشرطة حول أكوام من قمامة التشرذ فلا أدرى أيها  
يصعب على : هؤلاء المساكين أم الجنود أنفسهم ، وأقول :  
كان الله في عونهم ماذا سيفعلون بهم ؟ يفتنى كأنه فص ملح  
ذاب ، هذا القروي الذي يسألني في مصر الجديدة أين طريق  
الهرم وأحيانا أجده في الهرم فيسألني أين طريق مصر الجديدة .  
إنه ذو حياء لأنه يكتفى كل مرة بقرش ولا يسألك ثمن أبونيه .  
ثم أنحفض عيني وأفتحها وأركب المترو فإذا من جديد يد بيكاسو  
ذاتها في أني ، والخطاف ممتد إلى ، والرجل لا يزال تائها في  
مصر الجديدة . أين ذهبوا ؟ كيف عاخوا ؟ كيف احتل كل واحد  
مكانه المرسوم كأنك يا بوزيت لا رحت ولا جيت ١١٩

والغريب أن خبر الحملة الواسعة النطاق يكون مصحوبا عادة  
بخبر آخر عن متسول يموت عن تركة تبلغ الألوف من الجنيهات  
يتلازم الخبران كأنهما على موعد حتى كدت أشك أن الشرطة هي

التي تختبر المتسول المليونير لتضمن مشاركة الجمهور بقلبه  
في حملتها ، ثم يسحب النسيان ذيله على الحملة والفرقة معاً ،

واستطرد صديقي يقول :

لا تغيظني عودة الشحاذين بقدر ما يغيظني التعلل بسمعتنا أمام  
الأجانب في كل خبر ينشر عن هذه الحملة ، فهل لو هاجر  
الأجانب من بلادنا رضىنا لأنفسنا بما لا نرضى به لخضراتهم ؟ ،

قلت له : وما الحل ؟

قال لا بد أن تتغير صيغة هذه البلاغات الحربية وتمتنع ألفاظ  
المطاردة والمقاومة والتطهير والإجلاء ونحل محلها ألفاظ مثل  
« إيواء » و « تشغيل » و « توطين » ، إننا حينئذ نتوقع للشرطة  
أن تنصرف في هذه المعركة الرهيبة التي خسرناها كل مرة خاضت  
فيها نهارها .

وسكت صديقي لحظة ثم قال :

وعلى ذكر الأجانب ، أنت تعلم أنني تجاوزت الخامسة  
والخمسين وقد قرأت أخيراً خبراً يؤكد لك أنني قرأته بنصه وفصه  
قبل أن أبلغ سن العشرين ، وقرأته بين العمرين أكثر من مرة ،  
انه يختفى ويظهر كالنجمه أم ذيل ، هو خبر على شكل رسالة  
ولادارة لرئيس التحرير من طالب أو عضو بعثة مسافرة لأوروبا  
أو أميركا إنه نزل لدى أسرة أو دعى لمساعدة فكان أول سؤال

تلقاه ممن يحيطون به : لماذا تظل المرأة عندكم محجبة ، ولماذا تتزوجون من أربع نساء ولماذا تركبون الجمال وماذا تفعلون بالتماسيح التي تملأ نيلكم وتسرح في شوارعكم ؟ ويلطم المواطن الغيور خطبه في رسالته ويناشد أولياء الأمور أن يفعلوا شيئاً للتعريف بنهضتنا وانقاذ سمعتنا ، وتقف الرسالة عند هذا الحد إذا كان صاحبها ملولاً يجد في الشكوى تمام لذته ؛ وتزيد أحياناً إذا كان صاحبها من المناضلين فيخبرنا أنه تطوع للقيام بحملة هي الأخرى واسعة النطاق لدحض هذه المقتريات ؛ ويطالب بأن تصله بسرعة نشرات مصورة بكل اللغات وأفلام ثقافية قصيرة .

فإذا قرأت هذا سألت نفسي كل مرة هل رضع هؤلاء الناس مع ألبان أمهاتهم فكرة قائمة ثابتة عن الشرق لا تتغير ؟ لماذا تعنى أعينهم عن سفاراتنا ومفوضياتنا وقد أصبحت منتشرة في بلادهم ؟ ويخيل إلى أن العلاج الأول هو أن نجمع نسخ كتاب ألف ليلة وليلة بكل اللغات ونحرقها ؛ إنه السبب الأكبر في هذه النكبة ، ثم أعود للعزل وأتمنى أن نبذل لدى هيئة اليونسكو جهداً متصلاً للتوسط لدى أعضائها لتضمين كتب المطالعة في مدارسهم وصفاً صادقاً ولو مرة لبلادنا . ثم أرجع فأحكم أن هذا حل لم صعب التحقيق فإلى أن يزول التعصب وتنتج العيون سيظل هذا الخبز في صحفنا يتكرر بصيغة واحدة ، لا تتغير لا فرق بين الماضي والحاضر والمستقبل القريب .



ومر بنا جرسون يحمل كأساً من خمر لزبون فعلق بها نظرة صديق  
فإذا به يهتف :

— نخذ خبراً آخر قرأته أكثر من مرة « ضبط رجال مصلحة  
الإنتاج والرسوم المقررة معملاً لتقطير الخمر خفية وأسألوا على  
الأرض محتويات عشرة براميل مملأى بسوائل سامة مغشوشة » .  
فإذا كان الصحفي ناشر الخبر نشيطاً أو يهوى كتابة القصص القصيرة  
أضاف أن التقطير كان يتم في مرحاض منزل قديم من أملاك  
الأوقاف في زقاق هبات أن تجده في خريطة العاصمة ولو كانت  
مرسومة بنسبة واحد إلى واحد ، إنه يريد وهو يذكر المكان  
بالتحديد أن يروحى بوسيلة الغش :

واستمر صديق يتسم :

« أول أثر لهذا الخبر في نفسى هو الانتقال بذهنى إلى هذه  
الحمارات الخزينة المتوارية كذوى العاهات في أحياء القاهرة ورؤيتى  
لروادها يحاسون عياناً بياناً — لا خفية في مرحاض — أنواعاً من  
الخمر يكتفى لونها وحده أن تثق بأنها من متفوخ البراطيش ،  
ومع ذلك يجدون فيها السعادة والنسيان ، فأحكم أن هذا الخبر  
سيكربهم أشد الكرب ، فحرام عندهم أن تراق هذه النعمة على  
الأرض هدرا ، لأنهم أصبحوا إذا كان قد بقيت لهم أمنية فهي  
أن يطلبوا إلى الحكومة ألا تسمح ببيع خمر إلا إذا كان مغشوشاً ،  
ولا فرق بين سم وسم لأنهم أصبحوا لا يروى ظمأهم إلا بالخمر  
المغشوش ، كنت أتمنى أن يكون رجال مصلحة الإنتاج مصحوبين  
بمندوبين من وزارة الصحة ، هذا أقل رجاء لأن تمام العمل أن

تفرد وزارة الصحة بمحاربة هذه السموم لتعليق المسؤولية  
برقبها .

والأثر الثاني لهذا الخبر عندي هو الانتقال بذهني أيضاً إلى هذه  
الأكوام من المأكولات على عربات اليد وفي المطاعم لا فرق  
بين شعبية وراقية، إنها إذا لم تخضع لرقابة شديدة مسموم لا تقل عن  
هذه الخمور الفاسدة . فلماذا لا تقرأ خبراً عنها ؟ ولا أريد أن  
أحدثك كيف يباع الخبز واللبن في معظم الأحيان .

هبط على صديقي ، صمت حزين ثم خرج منه وهو يقول  
هامساً :

يؤدى بنا الحديث السابق إلى خبر آخر تكاد لا تمر سنة إلا  
نشر وفي كل مرة بصيغة واحدة يفتننا بضبط عصاة من المجرمين  
العتاة تجمع الصبيان المتشردين لتدريبهم على النشل والسرقة وتهتك  
فوق البيعة أعراضهم . ولا يقل عدد هؤلاء الضحايا في كل مرة عن  
خمسين أو ستين . إننا نرى هؤلاء الصبية رأى العين ثم نشيع  
بوجودنا عنهم .

قلت له : مشكلة هؤلاء الصبية هي صورة أخرى لمشكلة  
الشحاذين التي بدأت بها حديثك وما دمت قد بدأت تكرّر نفسك  
فاسمح لي بالانصراف ، كفاية ، عن إذكائك .

( « الأهرام » : ١٠/٢٣ / ١٩٦٠ ) بعنوان  
« مطاردة المتسولين وأخبار أخرى »

## تاريخ من نوع جديد

**لعل دعاء :** « اللهم اجعل كلامي خفيفا عليهم » هو تفسير امتناع جميع المؤرخين من قسماء ومحدثين عن أن يضعوا لنا إلى جانب كتبهم العديدة التي تشيد بانتصارات الإنسان ولو كتابا واحدا مختصرا يحصر ويعدد النكبات التي نزلت بهذا الإنسان منذ مبدأ خلقه إلى اليوم ، وفاتهم أن التذكير بالنكبة إن صدر عن قلب سليم وبغير تثبيط للهمة هو تبصير يزيد نفعه على ضرره .

لذلك نازعتني نفسي — والنفس أمارة بالسوء — أن أضع مثل هذا الكتاب ، لا أذكر فيه غوائل الطوفان والحرائق والأوبئة والحروب وتدهور البورصة ، فهذه كلها جراح تنمل بغير ندوب ، وكل واحدة منها عقيم ليس لها ذرية ، بل اجعل الكتاب خالصا للنكبات الروحية التي أفسدت الإنسان وسلبته ،

وهي نكبات ولود لا يتقطع نسلها جيلا بعد جيل بل يشتد مع الزمن ويقوى، ولكنى عدلت عن وضع هذا الكتاب لخوفى من أن يحىء هو الآخر فى عالم التأليف نكبة كبيرة تهون معها كل النكبات التى يتضمنها، ومع ذلك يشق على . وهذا شأن كل مؤلف - أن يفتس هذا الكتاب، فاسمح لى - واستحمل - أن أقدم لك لمحة سريعة لفصوله الأولى، وسترى أننى أيضا دعوت الله أن يجعل كلامى خفيقا عليك .

## الفصل الأول

### اقتران بين الذكاء والكذب

● أول نكبة فى التاريخ هى أن أول إنسان اتقدت فى رأسه أول شرارة لأول ذكاء كان أول إنسان نطق لسانه بأول كلمة، وهكذا جاءت ولادة الذكاء مقترنة بولادة الكلب فى مهد واحد، فلم تكن لغة الانسان البدائى شيئا منفصلا عن الواقع بل هى مجرد تسجيل تلقائى لهذا الواقع : فاذا رسم بالحجر الأبيض على جدار كهفه دائرة ولو معوجة قليلا قصد بها البلر فى السماء لاشيئا آخر ، وإذا فرضنا أن معجزة ردتك من الزمن الحاضر إلى زمنه وعلفت على رسمه قائلا : هاها . أنت ترسم وجه جارتك الساكنة

قصائدك ، لما فهم من كلامك حرفا فليس في ذهنه قدرة على الخروج عن الواقع وتسمية الأشياء بغير مسمياتها لا أقول إنه سيحكم عليك بالجنون لأن الجنون من ثمار الحضارة ، وإذا عاد هذا الرجل يحمل على كتفه فمخلة ثور ورسم على جدار كهفه صورة أسد يفترس ثورا قصد أنه انتزع هذه الفمخلة من فم الأسد، وفهمت زوجته الحكاية دون شك وقفزت على قدميها وصفقت افتخارا ببطولته .

فما الذى حدث ذات يوم من أيام النحس ؟

بعد أن استوثق الرجل من خزين بيته عاد في اليوم التالى إلى الكهف بامرأة يجرها من شعرها ورسم على الجدار صورة رجل يطعن نافوخ رجل آخر بزلة مدببة، يعنى أنه قتل زوجها وخطفها ، قفزت زوجته هذه المرة لا تصفق بل تلطم على خديها ، غيظا من خيانة زوجها ، وغيظها مسألة خريزة لا فضل لعقلها فيها ، وباتت في ركن مغمومة ، تغلى طاسة رأسها غليانا لم يعده رجل من قبلها ، من هذا الغليان نبت في منحها وميض ضئيل غريب لم تعرف أنه أول مشكاة لأول ذكاء .

قامت قبل الفجر وزوجها لا يزال راقدا إلى جانب خريمتها - كما يحدث في كل ليلة دخلة - وبحشت عن بقية الدخلة وأكلتها كلها ، ولما استيقظ الرجل وطلب فطوره بسطت له كفين فارغتين وقالت له بالغممة أو بالرسم :زوجتك الهائم الجديدة امرأة مفجوعة، هى التى أكلت الفمخلة بالليل وأنت نائم على أذنيك ،

وهكذا شهد الكون أول كذبة ، وأول ذكاء :

ولما كان الكلب لا يزال مستحيلا على ذهن زوجها فإنه زجر  
في وجه السارقة وكشر لها عن أنيابه حتى حسبته سيئا كلها بدل الفمخة  
فولت هاربة .

وظفح البشر على وجه الزوجة وإن ظلت توحوش من وجع  
بطنها عدة أيام وزعمت لزوجها لتعليل وجعها أنها حُبِلَ - وهكذا  
ولدت الكلبة الأولى كلبة أخرى في أقرب وقت ، وامتد بعد  
ذلك نسل الكلب وانتشر حتى عم الأرض .

أتدري ماذا حدث للرجل ؟ لقد انتقل إليه بالعلوى أول  
ذكاء وأول كلب ، فأدرك حيلها وقال لها وهو يربت عليها  
« أنت أجمل امرأة في الوجود » ( هذه هي الكلبة الثالثة في التاريخ  
وأول كلبة من هم الرجل ) ثم قال في سره : « من أكل لحما  
نيثا وجعته بطنه » فسارت مثالا مشهورا منذ ذلك اليوم .

لا تغضب مني امرأة . لأنني نسبت إليها أول كذبة ، يكفينا  
فخرا أنتي أرجعت إليها لا إلى رجل أول ذكاء ، بفضل الكلبة  
الأولى انتقل الإنسان من عالم الواقع ومآمنه، إلى عالم الخيال ومهالكه،  
وتهيأت اللغة إلى الخروج من الفردية والتفاصيل إلى العموميات  
والكليات ونشأت مع الأسف والفلسفة، وأصبح الإنسان لا يخشى  
أن يفرض فروضا كاذبة، يستخرج منها نتائج صادقة ، وهكذا  
نشأ العلم التجريبي أيضا وظل طول عمره بسبب نسبه الشريف

في حيرة من أمره ، النتائج الصادقة لا تلبث طويلا حتى تصبح في يده من جديد فروضا كاذبة ، ولكن اقتران الذكاء بالكلب في المولد أحاط الذكاء منذ اللحظة الأولى برية منه وتوجس ، وجلله براءة زخمة تعافها الأنوف .

إن لم تصبح كلمة الذكاء من مترادفات كلمة الكلب فإنها منذ نشأتها توحى بأنك إذا وصفت رجلا بأنه ذكي كان المفهوم أنك تتحدث عن خبيث ألبان لا تستطيع أن تثق به أو تطمئن إليه ، ولم يعترض أحد حين نصت أغلب الديانات على أن أول الداخلين إلى الجنة هم البله والسليج البسطاء .

من بطن أول امرأة كذبت لا من بطن غيرها جاء كل شاعر وفنان ، وجاء أيضا كل نصاب ومغامر ، فأنت ترى الإنسان والأديان تتوجس سرا من الذكاء وهي على حق ، فإنه وإن أقام الإنسان سيدا للكون فإنه هو وحده الذي فصله عن الكون وقطع اندماجه به ، وعدد المقاييس فاختلط الصادق الدائم بالزائف العابر ، أمارت غرائزه واستبدل بها عادات هي وليدة عوامل مصطنعة لا الطبيعة الصادقة ، يتزين الإنسان بهله العادات وماهي إلا حجر ثقيل معلق في عنقه هي سبب شقائه في هذه الأرض ، واستمرأ الإنسان الكذب حتى أصبح من فرط ذكائه يعتقد أن حياته ذاتها أكبر كذبة في التاريخ ، وهذا كفر صريح .

فاذا دعوت لك أيها القارئ أن يشفيك المولى من ذكائك ويبيك قسطا وفيرا من السذاجة فاعلم أنني أدعوك بخير .

## الفصل الثانى

### طلاق بين السحر والطب

● جاءت النكبة الأولى - كما رأيت - بسبب اقتران ، أما النكبة الثانية فقد جاءت بسبب افراق ، يوم انفصل الطب عن السحر بالطلاق . تعال معى نشهد ماذا كان يحدث من قبل وماذا يحدث من بعد .

لم يغمض لرجل جفن طول الليل فى كهفه ، كفه لا يرتفع عن جنبه ، لم يقل لزوجته إنه يشعر بوخز إبرة لأنه كان لا يخطط بعد جلد النمر الذى يلبسه إذ كان عاريا كما ولدته أمه ، إنما أكد لها أنها طعنة عفريت جاءه فى كابوس على هيئة خريت ، فلما شقشق النور مضى إلى الطبيب الساحر ، ودخل عليه من فوره وأسلم له نفسه وتلقى لمسة يده لرأسه وتعاوبته والمضغة المرة التى وضعها فى فمه - تلقى كل هذا بقلب آمن مؤمن واثق أن الشفاء فى يد الطبيب الساحر وحده ، قد فعل هو كل ما يقدر عليه وما بعد ذلك سر محجب على الاثنين لا حيلة لهما فيه .

أما اليوم فحفيد هذا الرجل إذا أصابه مثل هذا الوجع بالليل أقام البيت وأقعده ، سأل زوجته عن سبب مرضه كأنها من خريجات كلية الطب ، وضرب مائة تليفون لأصدقائه فذهب منهم من يقول له إنه



مغص معوى ونصحه بأن يضع على جنبه كيس ردة أو قرية ماء ساخن ،  
فينهال على زوجه يسألها أن تذكر له كل طعام تناولته في اليوم السابق ،  
هل هو عصير القصب أم قطعة الخانوق؟ ومنهم من يقول له انه مغص  
كلوى . ويصف له وصفة فلا يتركه حتى يستفسره عن أسباب هذا  
المرض وعوارضه وكيف تنشأ الحصوة وماهى أنواعها ، ومنهم من  
يقول له إنه مصران أعور وينصحه أن يستدعى الإسعاف أو بوليس  
النجدة فوراً . يقفل السكة وهو منزعج ثم يطلب آخر أصدقائه ويسأله :

— إنما المصران يمين أم شمال ؟

— يمين طبعاً .

— أنا حاسس بالوجع فى الشمال .

— هذا اسمه « رفليكس » يا مغفل .

— ولماذا لا أكون أعور شمال . . الخ ،

ويقوم هو وزوجته إلى صندوق كبير مخزن فى الحمام ،  
مملوء لثم صينه بعشرات من الزجاجات ، بعضها بختمه لم يمس ،  
وبعضها مملوء إلى النصف ، وبعضها فارغة ، يحتفظ بها ليطالب  
مثيلاتها فى المستقبل ومع أنه اشترى هذه الأدوية بنفسه واستعملها  
إلا أنه من شدة انزعاجه قد نسي لماذا هى موصوفة ، وإذا تأكد  
أن واحدة منها تصلح له نحشى أن يكون التخزين قد أفسدها ،  
ويعود إلى التليفون من جديد يسأل أصحابه كلهم عن اسم الطبيب  
الذى يثقون به فلا يجمع اثنان على رأى ، يذكر له واحد اسم

طبيب ويقول له : إياك أن تذهب إلا إليه ، ويقول عنه صديق آخر : إياك أن تذهب إليه ، بل اسمع كلامي واذهب إلى فلان . وبعد ليلة يقضيها في عذاب تنهد منه أعصابه وتسوء حالته يذهب من غد إلى الطبيب فيقابله كمساري في زى تمورجى يبيع من دفتر تذاكر ، ويقول له : تعال بعد أسبوعين . . فيمضي إلى آخر فيعلم أنه سافر للشام ، أصبح البحث عن طبيب لعبة استغاية . وأخيرا يخل على طبيب وهو لا يثق به كل الوثوق ، يظن انه سيسارع إلى الكشف عليه ولكن بالاطبيب طويل فهو يجلسه أولا جلسة التلميذ في امتحان عسير .

وأنخذ يسأله ، وهو يكتب ، عن عمره ووزنه ، عن مهنته وتاريخ زواجه وعدد أولاده وكم منهم مات « فيجدد أحزانه » ، ثم عن أبيه في أى سن هلك وبأى مرض « يذكره بيئته ومآتمه » ، ثم عن كم مرة حملت أمه وكم مرة سقطت ، كان هذه المسائل يتناولها حديث الأسرة حول مائدة الطعام . ألا يعلم الطبيب أن هذا عار ليس بعده عار ، أن يسأل أمه كم مرة سقطت . إنه يربأها بأن تكون كبقية النساء ، إنه يؤمن أنها عاشت وسط أولادها بأكرا مطهرة شريفة ، فام يبق إلا أن يفضحها الطبيب ويعريها لأمامه وهي حرم مقدس عنده .

ثم قاس ضغطه وضرب بالمطرقة ركبته وطلب إليه أن يسير في الحجرة سير المنوم وهو ماد ذراعيه إلى الأمام وأخيرا قال له :

قبل أن أكتب لك الدواء آتني بتحليل للبراز والبول والبصاق والدم  
وعصير المعدة ، وقياس الميتابولزم ، وصورة أشعة للمعدة والقلب  
والكليتين والجيوب ( الأنفية طبعاً لا جيوب البنطلون ) .

خراب بيوت وضياح وقت وهم أكبر من هم المرض ،  
ولكن مهلا انه سينتقم من هذا الطبيب بلوره : فإذا عاد إليه  
بما طلب وتسلم الروشنة أخذ يمتحن الطبيب امتحانا صيرا فيسأله  
عن سر مرضه وعوارضه ومراحله ، وهل الدواء يحلى أو  
مستورد ، ويلاحقه بالتليفون ليفضى إليه بكل رعشة أو تنميلة  
في جسده . . وإذا خرج من العيادة والروشنة لا تزال في يده قابله  
صديق فخطفها منه وقرأها ثم قال له وهو مزهو بعلمه :

— واكنك لم تخبرني أنك مريض أيضا بضغط الدم ؟

يا خير أسود ؛ هل يعود إلى الطبيب من جديد ليستوثق منه  
أم يعدل من الكسوف وينذهب إلى طبيب آخر .  
ويمتليء صندوق الحمام بعدد هائل آخر من الزجاجات . .

هكذا ترك الطب كهف الساحر ، نحرسه فيه الطلاسم من  
العبت وهبط الى الشارع وفقد كل هيئته ، وقل نفعه ، فأينما  
سرت أمامك إعلانات شيقة عن أدوية تشفى جميع الأمراض بسرعة  
وأمان ، كل وصف للدواء جديد كأنه موسيقى زفاف عروس يتمنى  
الصحيح قبل المريض أن يأخذها بين أحضانها ، والأدهى من هذا  
كله أنباء تبشر باختراع جديد يشفى مرضاً نحيثاً ولكن أين ؟

في أمريكا أو في روسيا ، فانظر إلى لفظة المرضى عليه وخيبة  
أملهم إذا طلبوه فقيل لهم انه لا يزال في دور التجربة . . اذن  
فلماذا التمعيل بالنشر ؟ أصيب الإنسان بنكبة كبيرة حين أصبح  
كل إنسان نصف طبيب إن لم يكن طبيباً كاملاً . . .

وامتحان الطب صحة امتحان للصيدلة ، لحقتهما في صباه وهي  
دكان محاط بالغموض والرغبة ، لا يقربه إلا المحتاج إليه وهو  
مضطر ، تشع منها رائحة المستشفيات ، على بابها كالرصد رسم  
لثعبان مدلل اللسان فإذا رفعت بصرك وجدت وسم بجمجمة بين  
عظمتين ، يا ساتر يارب .. والأرفف كلها ملاءى بزجاجات عليها  
أسماء لا يستطيع لسانك النطق بها ، لاعلاقة لك بها ، الصيدلى  
وحده هو الذى يعرف سر تركيب عناصرها ومزجها .

أما اليوم فالصيدلية تجمع بين محل لبيع العطور ومحل لبيع  
الحلويات والبونبون ، يدخلها المحتاج وغير المحتاج ، فعلى الأرفف  
زجاجات مختلفة عليها أسماء سهلة كأسماء البسكويت ، تعرفها  
حق المعرفة من كثرة الإعلان عنها ، فلك أن تمد يدك وتختار  
منها ما تشاء ولا تدخل للصيدلى بك ، لى أكثر من صديق فى بيته  
صيدلية كاملة لم يشترها بروشته واحدة . . .

إلى هذه هى النكبة الثانية ، بعد أن كان الطب سحراً له بجلاله ،

أصبح هواية أو لعبة: .ومن اللعيب ما يسفر عن ضحايا يفوق عددهم.  
ضحايا أشد الممارك هولا .

وكان الإنسان من قبل يعالج كأنه روح بلا جسد ، فلما افترق  
الطب عن السحر أصبح يعالج كأنما هو جسد بلا روح ، وهذا  
| في نظري هبوط من نصف الصديق إلى نصف الكذيب :

## انا والنسيان ودواه

**قابلت** صديقي خارجاً من عيادة الطبيب والروشتة لا تزال في يده بزار القرن لأن الأجرخانة تحت العيادة أو قل لأن العيادة فوق الأجرخانة ، الله يبارك للاثنين في معاهدة «حسن الحوار» وفي سياسة « شيلاني واشيلك » فقلت له : سلامتك ، خير ان شا الله ، فمد لي الروشتة ، وجلدت نبش فراخ لم أتبين منه إلا رأس الكلمة والباقي ذيل طويل منحول الشعر ، الظاهر بين الإثنين أيضاً شفرة تستعصى على الدخلاء أمثالي .

فقلت له :

— كلمني بالعربي لا باللاوندي ، ماذا بك ؟

— مسألة بسيطة جداً وخطيرة جداً في وقت واحد .

— لا أعرف شيئا ينطبق عليه هذا الوصف إلا الوهم ، فبأى مرض تتوهم أنك مصاب .

— ليتنى كنت موهوما . فالوهم على الأكل للذي يجد فيه المريض تسلية كبيرة . ومن أجل هذا يحبه ولا يتنازل عنه ، المسألة أدهى ، لأننى مرت منذ زمن طويل فى طريق لم أدرك أنه منحدر لأنه لا ينحدر إلا قليلا قليلا يميل لا تراه العين ولا تحس به القدم حتى اصطدمت فى قعر هوة بسد من هواء فارغ انعقد على شكل ضباب كثيف هو أفسى من الطوب والحجارة ، لا أدري متى بدأت ذاكرتى تضعف ، غير أن السوابق التى كانت لاشك قد زاد عددها ملأت الصفحة فألحت على أن أرحلها لصفحة جديدة ، حينئذ انتبهت أن فترة غير قصيرة قد مرت على وأنا عاجز عن تذكر الأرقام ، تصور أننى كنت أنسى رقم تليفونى ، وسليت نفسى قائلا ، لا ضير ، الأرقام أمرها هين ، والحياة ليست كلها تليفونات وعناوين منازل ، يكفىك أن لك ذاكرة من حديد إذا كان الأمر يتعلق بالأسماء أو الوجوه ، فما من اسم علمته إلا بقى فى ذهنى ، يحدث أن أكون فى جمع من الناس وثائق سيرة إنسان نعرفه فيتلجلج المتحدث فى ذكر اسمه ، فإذا بهم يرونى أفر وأصرخ لهم بالاسم ، لا يفهمون أن سبب صرختى هو فرحتى بالمقدرة التى بقيت لى ، كنت حينئذ أشعر بنشوة كبيرة لأنى انتصرت فى معركة مع العدم أو طلعت الأول فى سباق العدو لمائة متر .

وكذلك الوجوه : ما من وجه رأيته ولو مرة واحدة إلا تذكركه

ولو كان صاحبه قد غاب عنى الشهور الطوال ، ولا أنسى فوق ذلك لمن هو وأين ومتى قابلته ، إن صادفت رجلا طال غيابه عنى فحييته على الفور باسمه شعر بشيء كثير من الرضى عن النفس لأننى أعلم أن أكثر ما يرتاح له غرور الإنسان أن تناديه باسمه فى وقت لا يتوقع مثلك ذلك . إن كان من المعارف رقيته إلى درجة الأصدقاء ، وإن كان صديقا حمد لك أن اسمه مركب على لسانك كفص الخاتم وعاهد نفسه ان يخلص لك .

بل كان يحدث أن يتقاطع فى الشارع طريقى وطريق رجل نكرة قادم نحوى فأذكر على الفور أنه كان جالسا أمامى فى المترو ذات مساء فى العام الماضى ، ثم أن وجهه ليس فيه شيء يلفت النظر ، فأسأل نفسى وأنا أستبونها . ما جدوى ذكرك لهذا الوجه ؟ حضرتك غاوى وجوه . ومع ذلك أحس بسعادة كبيرة لمقدرى الفائقة هذه .

انظahr أن الذهن عمارة كل شقة فيها منفصلة عن الأخرى ، كنت قد قفلت شقة الأرقام بالقبضة والمفتاح ثم انتهت أنى بدأت عزال شقة الأسماء أيضا ، فخفضت ومحاولت وقف هذا الانحدار ، إذا نسيت اسما وبحت عنه حتى وجدته بعد جهد أظن أكرره بلسانى مرة وأخرى إلى أن أتعب وقد يحف ريقى كأننى أتمم بورد على مسبحة حتى يعتاده لسانى وينطبع فى ذهنى وأضمن ذكره إذا لزمنى ، فإذا لزمنى لم أجده . فص ملح وداب ، الظاهر أن مطبعة ذهنى أصبح حب بالوظة تخرج النسخة الأولى مقروءة وإن تكن مشلطة والثانية نصف نصف



والثالثة بياض فى بياض كل شطارته ان يلتصق باليد ، الاسم الغائب  
لم يسقط فى الطريق ويضيع منى ولم يلهفه منى نشال ، بل هو باق  
معى ، داخل محفظة فى قعر شكمنية فى صندوق مخبئى فى مكان ما  
فى ذهنى ، الانحس أحياناً أن ضرساً بين أنحوين لا يزال باقياً بفمك  
مع أنك تكون قد خلعتة ؟ هكذا كان شأن ذاكرتى ، الاسم معها  
وليس معها .

واخيراً أصبحت بغربة قاصمة ، سكنت أثناء المصيف فى فندق فيه  
ثلاثة نخدم ، أمماؤهم هى عيد وسعد وسعيد ، وبقيت فى هذه البرجلة  
شهرين قضياً على البقية الباقية من مقدرتى على تذكر الأسماء فماتت  
ولا أقول غير مأسوف عليها .

أصبحت بعد ذلك كأنما وضعت أسماء جميع خلق الله « كورجة »  
فى كيس ، فإذا احتجت لاسم لم يكن على إلا أن أمد يدى فيه فأى  
امم خرجت به نطق به لسانى ، ولا تسأل عن نخجلى حين سلمت على  
صديق و داد باسم عبد التواب وصديق عبد المحسن قمر باسم طه  
عبد الباقي ، وكنت إذا نجوت يجلدى وأنا أمسح عرقاً أجعد شيئاً  
من السلوى فى تدبر خفايا هفوتى وأقول لنفسى هل طلع هذا  
الاسم بمحض الصدفة لأن الأسماء هبلا بيبلا فى الكيس ، أم أن  
هناك علاقة بين الخطأ والصواب . : فأنت تعلم أننى من المغرمين  
بفرويد ، يزعم أن بين الاسمين صلة خفية لا يكتشفها إلا  
حضرتة .

أصبحت أنسى الأسماء كالأرقام ولكن بقيت لي مقدرة فائقة على تذكر الوجوه .

فإذا بي لشدة دهشتي أجد أنني بدأت أنسى الوجوه أيضاً الظاهر أن النسيان كالسرطان ، يقابلني رجل في الطريق فيعانقني معانقة أحر الأصدقاء وأنا أسأل نفسي . من هو ؟ أين قابلته ، وأحاول أن أسخن موتور عواطفى بسرعة لألحق عواطفه .

كنا حينئذ قد دخلنا الأجنحة وتناول صاحبها الروشة ولم يكده ينظر إليها وهي نصف مطبقة حتى قال :  
- ٣٩٩ قرشاً .

فرفعت بصرى إلى اللافتة خشية أن تكون قد أخطأنا ودخلنا محل « باتا » - منذ بدأت التسعيرة حسابها بالمليم أصبحت الأسعار : ستة صاغ ونكالة أو خمسة صاغ تأخذ منها مشط كبريت . واستطرد صديقي يقول :

وقعت في حيص بيص ، وقلت لانجاة لك إلا أن تمثل دور من له ذاكرة من حديد ، ولكنى وضعت نفسى بذلك في مواقف حرجة ، أسلم على أحد المعارف - علاقتنا طيارى - باشتياق زائد كأنه أحر الأصدقاء فيدهش منى ويعجب ، وأعانق صديقاً بحرارة كأننى ألقاه بعد غياب طويل مع أنني أكون قد فارقت منذ لحظات قليلة ، وهكذا والظاهر أنني ممثل فاشل ،

فإن حياتي لا تنطلي على معظم من أقابلهم ، يظل الواحد منهم  
ممسكا بيدي وعيناه تبتسمان : أنت فاكركي ؟ فعددت إلى اختراع  
حيل جديدة فيكون أول سؤال لمن ألقاه : أين أراضيك الآن  
وكيف حالك في العمل ؟ أتمنى أن أجد في إجابته بصيصاً يضيء لي  
ذاكرتي أو طرف خيط أجلبه حتى ينكشف لي آخره .

قلت له وأنا أرثي لحاله ومع ذلك سمعت صوتاً خفيثاً يقهقه  
في قلبي .

— وماذا فعلت ؟

— لو أنصف الطب لما استسخرني إذا قصدت طبيب عيون ،  
إنه يضع نظارة على العيون التي لا ترى ما هو كائن أمامها  
فلذا جميع الأشياء قد تبينت بفضل قطعتين صغيرتين من الزجاج ،  
لو وجدتها في الطريق لحسبتهما من سقط المتاع ، كنت أحب  
أن أذهب لطبيب عيون وأقول له إن ذاكرتي — لا بصرى — محتاجة  
إلى نظارة أشوف بها ستة على ستة أو ستة على اثني عشر زى بعضه ،  
لأن جميع الأرقام والأسماء والوجوه باقية بلا شك في ذاكرتي  
إنما المسألة أنني عاجز عن رؤيتها .

أولم أشأ أن أذهب لطبيب نفساني ، يكرهني فيه مجرد التفكير  
أنني سأرقد كالقتيل على أريكة ويقف هو أو يجلس وراء رأسي ،  
فلا شيء يثير أعصاب الخط الأفقي إلا أن يتعالى عليه خط عمودي ،

في عزمي إذا حكمت على المقادير وقادتنى إليه ألا أذهب  
إلا وأنا متعب وبعد مشوار طويل لأستغرق في النوم بمجرد رقادى ،  
لاشك أن سريرته أنظف وأرخص من سرير الفنادق البريمو .

وأخيراً ذهبت إلى طبيب مشهور بمعالجة الأعصاب ولكن  
حين رأيته حكمت أنه يحتاج أيضاً إلى طبيب أعصاب .. ما علينا ،  
أعطاني هذا الدواء وقال لى : خذ منه حبتين على الريق بعد  
أن تستيقظ ، إياك أن يخلّ يوم وإلا ضاع أثر الدواء وكان عليك  
أن تبدأ « الكورس » من جديد ، ولا أدري لماذا لا يفعلون  
الحبة الواحدة من هذا الدواء في حجم حبتين إذا كان لا يوصف  
إلا هكذا ، ثم قال لى الطبيب كالعادة !

— عد بعد أسبوعين ،

قابلت صديقي صدقة بعد ذلك فهجمت عليه وسألته :

— خبرنى عن علاجك ، هل نفع ؟

— يرافو عليك ، أراك تذكر لقاءنا الماضى ، أين كان ومتى !  
وأدركت أن العلاج لم ينفع ، وقلت كأتى ألقى خبراً ولا أكنتم  
حسرة .

— بين العيادة والأجرخانة .

— آه ، نعم نعم ، تذكرت الآن ، بالضبط منذ خمسة عشر

يوما فلانى خارج توا من زيارتى الثانية للطبيب .

— احرك لى ما حدث بعد لقائنا الأخير .

— بقية الحديث مضحكة ، لم أحرك إلا بعد أيام من زيارتى الأولى أن هذا الطبيب من أسخف خلق الله ، تصور أننى أذهب إليه لعلاج النسيان فيطلب منى أن أذكر ضرورة تناول الدواء كل صباح ، لم أتبين هذا إلا حين عدت إليه اليوم .

وسألنى : هل فرغت زجاجة الدواء ؟

فقلت له : إنها باقية على حالها لم تمس ، فقال :

— لماذا ؟

لأنى كنت كل يوم أنسى تناوله ، إننى جئت لك لتعالج نسيانى وترد إلى ذاكرتى فبأى شيء أذكر موعد الدواء إذا كنت تعلم أننى فقدتها ، ثم إن حضرتك اشترطت أن أتناوله على الريق ولو كنت سمحت أن أتناوله مع الأكل فلربما ذكرته على الفطور والاعلى الغداء والاعلى العشاء ، وفوق ذلك فإن عبارتك هذه « على الريق بعد أن تستيقظ » قد برجلتنى ، فأنا أستيقظ أحيانا كمن لدغه عقرب ، أهب فوراً ، ما بين رؤيتى وأنا أتلحرج فى الفراش وبين رؤيتى وأنا أتلحرج فى الطريق إلا لمح البصر .

وأحيانا أستيقظ على مراحل مختلفة متصلة كشريط السينما البطيء . :  
تقلب على الجنين ثم فتح للعينين ثم نزول ساق واحدة ثم نصف قومة : ثم تمط وتثاوب : لا يفارقنى النعاس وأنا أشرب القهوة

وأدخن أول سيجارة ولا أصحو إلا على صوت الكمسارى  
« تذكر وأبونه » .

كان ينبغي أن تربط تناول الدواء بموعد أقل ميوعة ، ثم إن  
الناس تنقسم طائفتين : الأولى : تستيقظ حيوياتهم في الصباح  
على نار متقدة ثم تتمد شيئاً فشيئاً فأسوأ أوقاتهم هو المساء ،  
والثانية تستيقظ حيوياتهم في الصباح وهي خاملة ثم تشتعل شيئاً  
فشيئاً ، فأسوأ أوقاتهم هو الصباح وأنا من هذه الطائفة الأخيرة .  
ان هموم الدنيا كلها تنكئ على رأى في الصباح بمجرد أن تسألنى  
زوجتى : ماذا نطبخ اليوم أما في المساء فتجدنى رائق البال مؤجج  
النشاط .

زجرنى الطبيب وقال إنه من العيب أن أتصرف كالأطفال  
وأمرنى أن أعود فأتناول الدواء في مواعده - وهذا مانويته  
فمسي أن أنجح .  
وافترقنا . .

ثم قابلته بعد ذلك فلم يكده يرانى حتى هجم وسلم على باسمى  
وانطلق يقول :

والله أيام ا فاكرك لما كنت قاعد جنى في مدرسة أم عباس ؟  
كانت لك بدلة بحارى مضحكة تكشف عن نصف ظهرك وكان  
زارها الأسفل مقطوعا ، لا أنسى يوم ضربك عبد السميع أفندى

مدرس الحساب ، ولا الشيخ اسماعيل مدرس الخط ، الله يقطعهم  
أقابله منذ أن تركنا هذه المدرسة ، رأيت أمس يمرق أمامي  
في أوتوبيس فإذا هذا الوحش الجبار قد أصبح حطاما بالياء .

ذكر الأسماء كلها بلا خطأ وذكر عنى أشياء كنت نسيته  
لأنها تافهة وعمجت له حين رأيت وهو يتحدثني بمشي بجاني وهو  
يتوثب ، وعثرت قدمه بقطعة حجر فأثبط يدفعها بيوز حذائه  
ويميل معها حيث تميل حتى قطع بها معظم الطريق ، لو ترك  
وشأنه لدفع بها حتى باب بيته .

فدهشت دهشة منعتني من أن أفرح له وسألته وأنا متوجس ؟  
- ماذا بك ؟ ماذا جرى ؟

فصمت لحظة ولمعت عيناه بنجث ثم قال :

غافلت الطبيب ورأيت من الأفضل والأضمن . يوم أذكر  
لأول مرة موعد الدواء أن أبلغ الزجاجة كلها دفعة واحدة ،  
وهذا ما فعلته منذ ثلاثة أيام ، أصبحت لي الآن ذاكرة جبارة .  
فقلت له :

- يا تمرق يا تمرق ؟ أصبحت الآن تجرّ الماضي قسراً إلى  
الحاضر وانهاالت عليك توافه هذا الماضي لأنها كثيرة كما تنهال جلوران  
الحفرة على عامل في قعرها لم يحسن شقها ، لو أقيمت الآن مسابقة  
للحديث الممل لفزت بالميدالية الذهبية ، إذا كان ضعف الذاكرة  
بلاء فإن فرط قوتها إذا لم تحسن استعمالها بلاء أعظم ، لإذهب

إلى الطبيب من فورك واعترف له بما فعلت فلعله يجد لك علاجاً  
ثم قابلني وخبرني .

كان هو الذي جاءني بنفسه هذه المرة ، وقال لي ان الطبيب  
أعطاه حقنة أعادته إلى سابق حاله ، فانه جلس بين يديه وهو  
مكسوف يسمع كلاماً كوقع الشياطين . قال له الطبيب ا

- لاحظت في المرة الثانية أنك تذكرت موعدى ولم تتخلف عنه ،  
فأدركت مرضك ولم أشأ أن أصارحك به ، ولكني الآن أقوله لك  
بعد ما تبين من شططك أنك لا تنسى الشيء إلا إذا كان غير متعلق  
بشخصك ، والسبب الحقيقي لكل ما تنساه أنك غير مهبال به  
لأنه لا يمس مصلحتك ولا يهدد بقاءك . فمرضك هو الأناية  
والغلو في جعل الدنيا كلها تدور حول محورك فدواؤك لا يتناول  
بالفم أو تحت الجلد بل ينبعث من الروح ، أنت في حاجة لأن  
تحب الناس أكثر مما تفعل وأن تسوى بين همومك وهمومهم ،  
حينئذ تسترد ذاكرتك وتكون خير معاون لك ، اتركها لشأنها ،  
ستنسى بنفسها كل الصغائر ولا تحتزن لك إلا ما ينفعك في معاملة  
الناس حين تحبهم .

فقلت لصديقي وأنا أضع ذراعى في ذراعه :

- هو على حق ، وهذا ما ألاحظه عند حديثي من الناس ،  
يخيل لي أنهم يتصورون خطأ أنهم في معركة وهم في خوف منها



ومن الهزيمة فيها فلا يجدون لهم من وسيلة لحفظ النفس إلا أن  
يحفروا خنادقاً ويقيموا من حوله المتاريس ثم يختبئون فيه ،  
لا يدركون ، بل ولا يعينهم إذا أهدركوا -- أنهم يخصوصون في الوحل  
قليلاً قليلاً حتى تنزل رعوسهم عن مستوى الأرض ويفقدوا الرؤية  
كلها اللهم إلا ظلام الخوف في ضمايرهم :

سافر صليقي بعد ذلك إلى بلد بعيد ولم أطمئن عليه إلا يوم  
وصلتني منه برقية رقيقة تهتني بعيد ميلادي .

وكنت قد نسيت أنني ولدت في مثل ذلك اليوم فما أهمية ذلك؟

( د المساء : ١٦ / ١٠ / ١٩٦١ : ص ٨ ، ٧ )

## أَيَّ حَاجَةٍ

**يا فتاح** يا علم ، تلقفني البواب على الصبح تلقف « داية  
لوليد تلفظه إليها هذه المرة عتمة بير السلم ، كادت رأسي تصطدم  
بصارفه العريض - وستعلم السر فيما بعد - فوقفت قبل أن تهبط قلمي  
اليمين من بسطة العتية إلى الطريق . فلاني أحرص كل يوم على ألا  
أخرج إلا بقلمي اليمين وبقيت وأنا مائل إلى الأمام معلقا في وقفة  
ترشحني عن جدارة لرقص الباليه والظهور على مسرح الأوبرا في  
بنطلون طويل محزق ملتصق باللحم وهو بلون اللحم ، فيستر ولا  
يستر ، والذى يفصح عنه ولا يستره ألين مما يستره ، ليس من العيب قولهم  
« إن الله يحب الستر » . ولو مر بي ثانيتنذ مصور فوتوغرافي متخصص  
في رسم دخول « الجون » في ما تشات الكرة وأخذ لي والشمس  
طالعة صورة مخطوفة على الماشي بفلاش يزغلل عيني لمدة ثلاث

دقائق على الأقل لاكتشفت أنني كنت حينئذ - على غير علم مني -  
فاغر القم ، مع أنني غير مندهش إطلاقاً ، فحلاوة النوم لم تكن  
ذابت بعد عن أجفاني .

جمع البواب أصابع يده على هيئة كثرة طالعة نازلة في الهواء  
أمام صدره كأنه يحلب باستجداء ضرع بقرة عجفاء ثم مال إلى  
أذني وهمس وليس هناك أحد يسمعنا : معندكش بدلة قديمة  
مستغنى عنها . لواحد زى حالاتي ، أنت عارف .

فأدركت فوراً ويدون حاجة إلى ذكاء خارق أنه موالى مع  
المكوجي ، وأنه على علم أولاً بأول عن مدى نشاط غوائل الدهر  
والشمس والبقع والعرق والتراب على ملابسي ، وأى بدله من بللى  
« يا جحا عد غنمك » سارع إليها البلى فنحل وبر ياقتها ونسل  
أكمامها وجعلها من لونين مختلفين : واحد باهت ظاهر للعيان ،  
وواحد داكن تحت طيات الياقة ، ولا صلة بين اللونين إطلاقاً ،  
وأى بنطلون انبعجت كالخلاة ركبته ، وانخرقت جيوبه ونحف  
مقعده حتى أصبح كالمتنخل العمولة . . يحدث كل هذا في الوقت  
ما أقصره ، لا فائدة إلا التحسر لو قارنت بين حالها اليوم وبين  
إعلانات الشركة التي صنعت القماش تطنطن به في الصحف وشاشة  
السينما .

أدركت أى بدلة يريد البواب اصطفاها ، مغفل أ هيات  
أن يصدق أن أقدم ملابسي هي أحبها عندي ، ليس أنا الذي ألبسها

بل هي التي تليسنى في نعمة عين ، انقطعت خشخشتها ، وتودكت كل عروة على زرارها ، ونعمت أظافر الليف الذي يحشوها فرقد واستكان ، الكتف هوكتني لاكتفها ، وأصبح باطى والريح لا تشعر بدى وهي تلخل جيبا أنها تجوس خلال أرض مجهولة ، ولا تعلم وقت الزنقة أن تعثر على عود تسليك أسنان مخبىء كتهم منذ أن سرقت من مطعم ، جيوب البديل القديمة دافئة أبداً ولو كانت خرابا وجيوب البديل الجديدة باردة دائماً ولو كانت عمرانة ، انعقد بيني وبينها صلح هي فيه مخلصه وأنا منافق فلا أستبعد أن أخونها في يوم وأسلمها بعد عمر طويل إلى تاجر الروبابكيا .

كدت أطبق فكاً على فك وأبلغ ريقى ، الحمد لله ، لم يستوقفنى البواب ليبشرنى بأن العمارة ستهدم . أو أن الماء سينقطع من الصباح للمساء لرباع مرة فى الأسبوع أو يقول لى إن الساكن تحتى يشكو لطوب الأرض من دبذبة الأقدام فى شقتى أو من زعيق خادمتى وأن الغسيل فى بلكوتى يتدع على بلكوته ، وقلت فى نفسى . مسألة البذلة هينة ، وفى الوعود الكاذبة متسع للجميع ، وكدت كما قلت لك أطبق فكاً على فك وأبلغ ريقى : وأقول له :

— حاضر من عيني الاثنين ربنا يسهل .

ولكن فى ظل فاعرا وأنا أتطلع إليه ، لاشك أنك علمت من وصنى له أنه عملاق ضخمة بدين واسع الصلر لو مال على جبل لهذه ، أما أنا فيسلكنى الأصدقاء — ومن ضمنهم نفسى — بين

للطوال ، تكريماً منهم وبسبب الألفة والعادة لا النظرة : أما عند  
بقية الناس فالحياء يحسبهم إلا أن يقولوا أن الأعراس أقصر منى ،  
فقلت للبواب وأنا أعانى أول دهشة فى ذلك اليوم .

— بدلة منى علشان واحد زى حالانك ؟

— لا ، علشان ابنى محروس ، خدامك ، أصله جـ من البلد  
المبارح مع أمه وانخرته ، تعال يا محروس بوس إيد اليبه الكبير  
بتاعنا .

فخرج لى من زنزاة الحبس الانفرادى الفاطمة تحت حنية  
السلام صبي أكرش حافى التلمين أتفه صنبور نزار ، وصدقنى —  
فليست هى مهالفة إذا قلت لك أنه حين وقت أمامى وجهته لا يبلغ  
ركبتي ، الصديري وحده يصلح أن يكون له معطفاً ، هذا البواب  
إما يحرق وإما يمدق : فقلت له : وأنا أعانى الدهشة الثانية  
فى يومى :

— بداتى علشان إبنك ده ، دى مانجيش عليه خليفها بقى لما  
يكبر بسلامته .

فأسرع يقول وهو يضحك فى وجهى :

أنا ما بدققشى ، أى حاجة منك خير وبركة وهرضة تنفع ،  
وانطلقت مسرعاً زاعماً أننى أجري وراء الأنوينس ، والخميرة  
أننى رأيت باب الزنزاة يفتح ويقلم على — كأرانب — أم وزربة  
حيال .

وأخذت أقول لنفسي : كيف يعيشون جميعاً في هذه الزنزانة ،  
لا شك أنهم يرقنون فيها بعضهم فوق بعض : أليس في قلب  
صاحب العمارة ذرة من الإنسانية ، ولكن رثائي لهم جبهه بسرعة  
رثائي لنفسي وأنا مفحوص وسط زحام الأتوبيس .

\* \* \*

وفي الظهر دخل على صديق كان قد غاب عني سنين طويلة  
تنقلت أثناءها بين عناوين مختلفة ، في المسكن والوظيفة .  
فلا أدري كيف عثر على ، قال لي بعد السلامة واللى منه :  
ابنى يا سيدى مطلع روحى ، قاعدلى زى الهم على القلب بعد  
ما سقط في الإعدادية سنتين ورا بعض ، عاوزك تشوف له شغله  
ولا تتوسط له عند حد من معارفك .

شغله ذى إيه ؟

رد على رد الذكى على المغفل أو المتعابط :

— أى شغلة . حاجة كده ، أى حاجة .

فكانت دهشة لي ثالثة .

وفي المساء كنت في المقهى مع زمرة من الأصدقاء يلعبون  
الطاولة ، فلإذا بهم قد رموا الزهر وقفزوا كأنما لسعهم زنبور ،  
وقال واحد منهم .

— الوقت جه ، يالا بنا يا جماعة على السيما .  
قلت لهم : أنهو ، رايحين أى فيام ؟  
فكان ردهم على رد اللطاب على المتحنشص .  
— أى فيام . أى حاجة ، اللي نلاقه مش زحمة ؟  
وكانت دهشة لى رابعة .

رما عدت إلى دارى سائرا على قدمى كان جهاز راديو فى دكان  
بقال يسلمنى إلى أخ له فى مقهى ثم إلى أخ ثالث فى دكان فكهانى  
بحيث لم ينقطع عنى الكلام أو اللحن حتى حسبت أن المغنى ينشدها  
لى أنا بالذات ويلاحقنى بها . أتعرف ماهى هذه الأغنية ، إنها هى !  
التي تقول :

— قولى حاجة ، أى حاجة !

أكون «أى حاجة» هذه الشائعة بيننا تفسير ما أحس به وأنا  
أخالط الناس من أننى أعوم فى بحر أمواجه الدفاقة انقلبت ، إلى  
دوامات سطحية صغيرة معايشة تدور فى حلقة مفرغة ، لا تدل على  
شئ إلا الحيرة ، وأحس أن نفس كل شخص قد جف ريقها  
إما من الطمع أو الجوع الكاذب فأصبحت تتلهف على «أى حاجة»  
وهى لا تدري ماذا تريد . فكيف يربك تقوم الشخصية  
وتثبت وتأنجل فى النمو ، إذا كان قيادها ملقى فى الهواء تموده  
«أى حاجة» .

كتبته هذا الكلام مضطراً فاعذرني لأن الصديق قال لي وقد  
أحببت أن أعتذر عن تأخير مقال الأسبوعى لانشغالى بجيئى بلعبه  
من الصغائر والتوافه :  
معلش ولا يهمك ، أكتب لهم حاجة أى حاجة .



## فرتلة ورتلة بركة

**سبحان** من أودع في كل قلب ما يشغله ، حكمة بليغة عتيقة ، ترجمتها الشعبية عندنا على الأرغول بصوت نحن وحدنا أبناء النيل نعرف كيف نجعل بجته أو حزقته - إذا كان المنشد صعيديا - تنطق في وقت واحد بالجلجل المتحدد والشجن الأزلي ، نقول : البحر واحد والسماك ألون .

هي حكمة تحض على قبول هموم الحياة بصبر وقناعة وفلسفة لأن المساواة بين الجميع في الهم فيها للفرد بعد الراحة ، ولكن هذه الحكمة ظلت في نظري ، كأخوات لها كثيرات ، حبراً على ورق ولم تثمر بلذتها في أرضي ( لعلها بوراً أو مطبلة ) إذ - أولاً : لا أعتقد أن نحمالك أنت لهم يخفف عني أنا همي ، ولو صرنا في منطق هذه الحكمة لغايته لالتحدر ببعض النفوس الضعيفة إلى خلط

الصبر بالشجاعة ، ثم لأنى - ثانياً : أسألك من قال لك اننى أضيع  
بهمومى . . . ؟

لست بدعا بين الناس ، كل إنسان تنشأ بينه وبين همومه من  
طول الصحبة روابط ألفة حلوة ، وصداقة لذيذة ، يؤمن أنها  
هى شغلته ومشغلته ، حديثه وسمره ، أنها رأس ماله وثروته ،  
بل هى كل ما تملك يده ، ماذا يبقى له لو طارت عنه ؟ هى  
قوام شخصيته ، فلو أبرأه منها رجل صالح مستجاب الدعاء لعاش  
بعد ذلك بلا هم ، نعم ، ولكن أيضاً بلا شخصية ، بلا ماض ،  
بلا تاريخ ، طيفاً خلوياً لا لون ولا قوام ، لو سألته كيف حاله؟  
لخرس لسانه ، وحار ماذا يقول . . ؟

ولكن بقيت لتلك الحكمة فائدة ، فهى التى تجعلنى اليوم لا أنسى  
أن أعترف لك بهم لى ، أغلب الظن انك تعرفه أيضاً ، هو  
يتناولنى - شأن الصديق - برفق لا بغلظة ، ويحدثنى بالهمس  
لا بالصراخ ، ولكن الغريب أن هذا الهمس لا ينبعث إلا حين أطفىء  
النور ، وأعدل رأسى على الوسادة ، وأحس جسدى فى قرفصته  
المعهودة استعداداً للنوم .

- تعال تعال يا حبيبى يا نور عينى ( وهله الطريقة من عاداته  
المزمنة ) ماذا فعلت بال ٢٤ ساعة الماضية التى مد الله بها فى  
عمرك ، كم من مرة قلت لك إنها على قلبها كتر ضحك ، غير  
موهوب لك حباً ، بل لتصرف منه فى بناء قدرتك على النفع ،

حتى لو كان هذا النفع قاصراً على نفسك ، لا بأس ، فمن نفع كل فرد لنفسه ينشأ. نفع يعم الناس جميعاً ، قل لى : ماذا فعلت بهذا الكنز ؟ هل صرفته شأن العقلاء بحكمة ، أم شأن السفهاء بقبليير ؟ بفرطقة وراءها قلة بركة ، نثرته كما ينثر الساهرون فى الكباريهات هذه الشرائط والكرات من الورق الملون على رموس الراقصين والراقصات ، لو وضعنا فى يدهم مائة طن لاستهلكوه فى هذا العبث الفارغ فى ليلة واحدة .

حينئذ أراجع يومى ويتبين لى وأنا مكسوف أن الوقت تسرب منى كالماء من بين الأصابع ، حقاً لأننى كنت أريد أن أضم يدى على رقبته لأملكه ، حتى لو خنقته ، ولكنى كنت كمن يطارد فى ساحة كبيرة لها سور واطئ دجاجة غير مقصوفة البخناحين هوايتها تتبع أنباء الأرقام القياسية للحنفاة فى سياق الماراتون ، وأعترف أننى تصرفت بحماقة وأسارع لى تلمس الأعداء فأجيب على الصوت الخامس « لا أعرف صاحبه ، هل هو إنسان أم روح أم عفريت هل هو لرجل أم لامرأة » وأقول له بطريقة أرجو لها أن تفوق تربيته :

— يا ناصح يا فالح ، يا قاعد على البر ، تعال لتحاسب ، هل معك ورقة وقلم ؟ اكتب يا سيد الملاح : أولا ، ٤٥ دقيقة ضاعت على .

— وأنا أسكن مصر الجديدة — لأنّ عربة المترو مودلى ما قبل الحرب العالمية الأولى تعطلت بنا ، طبعاً سنقول لى : كان ينبغي لك أن تتركه وتضحى بشئ تذكره لم يرض على دفع ثمنها إلا دقيقة واحدة لتركب الأتوبيس . ، أو — إذا زدت فى التريقة — تقول لى تتركب تاكسى ، ولكن أتعرف أين وقف بنا المترو ؟ فى تمر نازق غائر ، على جانبيه جدران ماساء حالية لا تستطيع نمتة أن تتساقطها ، وأورجعت إلى الوراء أو مشيت إلى الأمام على الزايط أوجدت نفسك مصوراً بين أسلاك شائكة كأنك فى معنقل ، بين الكهسارى والسائق حديث كالشفرة لا تفهمه ، نزل السكاكين .. طامع السكاكين .. ماذا ؟ هل نحن فى المذبح ؟ ولا حظ يا أمير الأمراء أن الـ ٤٥ دقيقة فى الحبس فى هذه المصيدة أورتنى من الترفزة ما أصجزنى عن كلى تفكير صحيح لمدة ساعة على الأقل . اكتبها من فضلك فى ورقة الحساب .

ثم يا أنخى [دلى تستكثر على أن أبث اليوم بخطاب مسوكر ؟ هل تعرف ماذا جرى لى حين دخلت مكتب البريد ؟ أولاً هل لاحظت أم لا أن جميع مكاتب البريد تعيش طول عمرها — حتى فى عز البرد — فى جو خماسينى بكم الأنفاس ؟ أسمع لك أننى أحس كما زرتها أننى أدخلها بعد إعصار شديد نثر الحطام والخردة ونشر لواء القبح والدمامة ، والناس صنفوف صنفوف فى ذل شديد كأنهم وقوف أمام مكتب إسعاف يوزع الحساء وصبغة البرد ، الزهق

اختار في مكاتب البريد محله المختار وإقامته المفضلة حتى أصبحت عنوانه الدائم ، إنه يهجم ويستحوذ عليك حلماً تهل ، قراه رأى العين لاصقاً كالغراء الزفر على الجدران والأرض ، وفوق الختامة المصابة بجفاف في الحلق ، ويطل أيضاً من فتحة رقبة البذلة الكاكي المهلهلة التي يلبسها ساعى البريد العجوز. وقفت أثقل أثقل جسمي (٦٨ كيلو) من على رجلى اليمين إلى رجلى الشمال وبالكس ، أثقلتم بسرعة أقل بكثير من سرعة ظل صنم على الأرض ، وحين وصلت إلى الكعبة قال لي حارسها (روح هات فكة ) ثم اتى هممت بتمزيق الخطاب ، ولكنى لقيتها مطينة ، فزدتها طيناً ، ومن باب الانتقام من هذا المكتب الذى أقسمت ألا أدخله بعد اليوم إلا عميولاً بقوة البوليس ، ومن باب الانتقام من نفسى لخيانة حظها ، ذهبت إلى مكتب آخر فكنت كالمستجير من الرمضاء بالنار يتي ، كم حسابنا ؟ . نصف ساعة ضاعت على أورثنى من الضيق ما يمنعنى من التفكير الصحيح ساعة كاملة : اكتبها أيضاً .

ثم هل تصفنى بالحماقة لأننى أردت أن أتكلم بالتليفون لآخرين مرة ، بل خمس مرات فقط ؟ أرفع السماعة وأصقها بأذنى فإذا بوش جن يلاحقنى ، خمس دقائق ، عشر دقائق ، ثم يأتى الخط ، فما أكاد أمد يلى للقرص حتى ينقطع ، ويعود ووش الجن خمس دقائق ، عشر دقائق ، ثم يأتى الخط وهو يلهث ، وأدير القرص ، وتوت

توت . توت النمرة مشغولة . . . وهكذا دواليك . . : وكثيرا  
لا أفهم من أكلمه لأن خطنا اختلط بخط آخر نسمعه ولا يسمعا  
إلى الآن لم أفهم سر هذه المعجزة . . العلم الحديث له تقاليع  
تعلو على ذكائنا . .

فاكتب في الورقة أني أضعت ساعة لإربعا في وش الجحش وتوت  
توت . . . وأنها أورثتني الخ الخ . . لأن الزهق واحد والعلل  
ألوان . .

لن أكذب عليك فأقول انني ذهبت أيضا لحكيم أسنان ومكثت  
في الصالون أكثر من ساعة ، أو إلى طيب مشهور شرفت عيادته  
الساعة الرابعة بعد الظهر ودخلت عليه نصف الليل ، هذا يحدث  
لي أحيانا ، ولكني اعتبره من النكبات السماوية وليس من العدل  
ذكرها في الحساب ، ولكن ثقي أنني كنت في حاجة اليوم لقضاء  
شغلة في مكتب حكومي ، لن أكرر كاليغاء الشكوى من الروتين  
والاضطراب بين موظف في الدور الأول وموظف في الدور  
العاشر ، لا ، قد دخلت على الموظف المختص فور وصولي ،  
وشغلتني كانت أمامه ، يستطيع أن ينجزها في ربع ساعة . أتلقى  
ماذا حدث ؟ بعد التحية والسلامات ، وضباع وقت في طلب قهوة -  
من جانبه يلحاح بخفيف ورفضها من جانبي يلحاح شديد ( لأن  
معدتي مقروصة من قهوة المكاتب الحكومية ) ، من أي شيء  
تصنع ؟ من مادة عضوية أو غير عضوية الله أعلم ، لم نكد نفرغ  
من تبادل الخلفان حتى اندفع بلا سبب ويدون سابق معرفة يروي

لى تاريخ حياته ، بالتعام والكمال من الدرجة السابعة إلى الدرجة الثانية  
لا لشيء إلا ليبرهن لى على أنه مظلوم وليس فى يدي أية حيلة  
لإنصافه ، طلع روجى للدرجة أفقدتني القدرة على أن أقرر هل  
أستسخره أم لا أستسخره ؟

فاكتب عندك فى كشف الحساب ساعة أخرى ضاقت  
على هباء .

وعدت لى دارى وأنا أحس بإعياء شديد ، لم أعرف بسببه  
لغداً طعماً وأكلت الفاكهة قبل أن تعد المائدة وختمت الأكلة  
بالطرشى ، كل هذه اللخبطة صورة صادقة مصغرة للخبطة يومى  
ثم انهدمت فوق الفراش أوّل أن تشفى القيولة جسمى من اعيائه  
نمت ساعتين ، أنت وذهمتك تحسبها أولاً تحسبها فى الورقة عندك ،  
لم تنفعنى القيولة بل زادتني إعياء على إعياء وقمت زهقانا ولكنى  
صحمت أن أبدأ أى عمل نافع ، فاختليت بفنجان قهوة وكتاب  
( وهذه الخلوة صعبة جداً فى بيتى ) أريد أن أثقف نفسى ، لأشارك  
فى نقاش أزمة المثقفين أو على الأقل لأدخل نفسى ضمن من يدور  
الكلام عنهم . . فالصيت ولا الغنى . . فإذا بزوجى تأتى لى  
خاصية تقول : ماذا جرى لعقلك ؟ ( تقول لى هذه العبارة أكثر  
من مائة مرة فى اليوم ) هل نسيت موعد شلة أصحابك ؟

علم الله أن الصداقة بينها وبين زوجات هؤلاء الأصحاب  
أكبر بكثير من صداقتي لحضرات الأزواج . . كان يجب أن

شذهب ، لا طلبا لمتعة ترد الروح ، بل أداء لواجب ثقيل ، هو  
ود دعوة منهم لنا سابعة .

.. وهكذا ضاعت الليلة أيضا . . لو عشت معي في أوروبا  
( رأيت الفرق بيننا وبينهم : هم الوقت ملك لهم ، أما نحن  
فملك الصائد والتماسير . . نحن أبطال في الفرتكة ، وقلة  
البركة .

أجاني الخمس قائلا : هل تريد أن تتخايل على ؟ أنت  
حياتك مضاعة في الفرتكة وقلة البركة من قبل أن تخرج من  
دارك . لأنك أنت وكثيرا من أمثالك يبلغ بهم الطمع والحماسة  
وأفن الرأي أن يرسموا لحياتهم أهدافا ، ولأنها أهداف  
فهي طبعاً بعيدة ، ثم يقضون عمرهم يمزقون عزيمتهم وجهدهم  
من الحسرة على عدم بلوغها ، فهم لهذا السبب أبرع الناس  
في تمزيق الوقت ، ولو أنهم توكروا الأهداف لمقاديرها وعنوا ،  
شيء واحد وليس غير ، هو أن يجعلوا حياتهم يوماً بيوم  
ملينة غنية لا تنزعوا ونفعوا وعرفوا أيضا طعم الهدوء والسعادة .

( د المساء ، ، ١٠/٧/١٩٦١ : من ٦ )



## حكايات ترجّ القلب

**يحدث** لك ولا ريب ما يحدث لي ، فالعلة شائعة ، يقابلني صديق مغموم كسير القلب فأحسب أن سماعه قد خرت على أرضه ، فإذا كشف لي عن سرّه - وهذا أول شيء يفعله - علمت أن لكدره سبباً قديماً قدم الزمان ، هيئاً غير خطير ، ولعل شدة وقعه راجعة إلى هوانه ، فإن الآلام الصغيرة الخبيثة أنخر في الروح من الآلام الكبيرة النيلة ، يقول لي :

- تصور ! فلان الفلاني زميلي منذ المدرسة الابتدائية وصديقي الروح بالروح ؛ كان لا يفارقني ليلة بعد أخرى نسهر ونعربد معا ( وأحياناً يضيف : وكنت أصرف عليه أيضاً ) تقلدتم به الحظ فأصبح وكيل وزارة وبقيت أنا لسوء حظي حيث أنا ، تصور أنني ذهبت إليه لأرجوه في مسألة فقال لي سكرتيه إنه

مشغول ، فعلمته ، ولكنى قابله اليوم صدقة في الطريق ووقعت  
عينه على عيني ، ما في ذلك شك ، فاذا به يشيح عني بوجهه  
ويزعم أنه لم يرفى ، لعنة الله على الدنيا وعلى أهلها !

هذا الصديق له صورة أخرى مختلفة في الظاهر ، ولكنه في الواقع  
لا يختلف عن صاحبنا الأول . يقول لى :

— صديقي فلان الفلاني هذا منذ أصبح وكيل وزارة قطعت  
رجلى عن زيارته ، خشيت أن يظن أننى أتملقه ، وسأزوره حين يخرج  
من الوظيفة ويبقى زى حالاتى . . ( ويضيف أحياناً من ثماتة  
سابقة لأوانها : « الصبر طيب » ) .

والحق أنه لا يخشى أن تاحقه تهمة التماق ، وحتى لو لحقت  
فما أسهل التخلص منها بأعذار لا يهتم صاحبها أن تخيل أو لا تخيل  
على سامعها ما دام فيها إرضاء ولو كاذب للنفس ، إنما يتوقع  
الكارثة فيسبقها ويتفادها ، إنه يخشى أن يرجو صديقه في مسألة  
فيكسفه .

إننى حينئذ أتف حائراً لا أدري ماذا أفعل ولا كيف أقول ،  
الإجابة الوحيدة التى ترضيه هى أن أسب الزمان وألعن الناس  
وصاحبه من ضمنهم ، ولكنى لا أجده فى نفسى إقبالا غير منقطع  
على سب الزمان والناس ، لأننى أحب أن أعيش بإيمان أن الدنيا  
بخير أو بوجه أنها بخير ، ثم لا أجده مخرجاً من حرجى إلا أن  
أروى له حكايتين من الواقع لا من نسج الخيال .

في ميلانو كتلوثاثة بها قسيس متعلم يشع من عينيه ذكاء  
وسعة حيلة وقوة إرادة ، هو في أى أفق حلّ به أوسع منه ،  
وعلى جبل قريب كنيسة صغيرة بها قسيس مفصل على قدمها ،  
لو نخرج عن دائرتها لضاع وأسقط في يده وتاه ، وكان صاحبنا  
الأول محبا للرياضة لا للمناها فمحسب بل لأنها تعينه على السهر  
الطويل في الدراسة ، فجعل من عادته أن يتسلق هذا الجبل ، كل  
أسبوع مرة ، فيبلغ الكنيسة الصغيرة وهو مجهد فيجلس إلى  
قسيسها ويفتح مندبله ويخرج طعامه ويدعوه إلى مشاركته ، يا كلان  
ويشربان ويضحكان ويقهقهان ، والقسيس الصاعد يجد للمنة كبيرة  
في الاستماع من فم صديقه إلى حديث ساذج عن الفلاحين والرعاة  
يلتمس فيه أيضاً راحة لذهنه من تطاحن أقوال الفقهاء في رأسه ،  
إنهم قادرون على أن يقسموا الشعرة نصفين . وتمضي ساعة أو ساعتان  
ثم السلام عليكم وعليكم السلام .

ثم انتقل صاحبنا من ميلانو وانقطعت أخباره عن قسيس  
الجبل ، ومرت السنون ، وإذا به يسمع ذات يوم أن صاحبنا هذا  
قد اعتلى كرسي البابوية في روما ، ففرح أشد الفرح وظن أن  
الدنيا قد أقبلت عليه ، لم يرسل إليه تهنئته ببرقية شأن العقلاء  
بل ترك عمله وصرف تحويز العير في شراء تذكرة إلى روما وهو  
يعنى النفس بأجمل الآمال ، سيجلسه البابا على المائدة أمامه  
كما كان يفعل ويقهقهان معا كأيام زمان ، وسيقدمه إلى جميع  
الكرادلة ، ويقول لهم : هذا صديقي ، وسيسأله في نهاية اليوم

عن طلبه فإذا أخبره به أرضاه من فوره ، ولكن ما هو هذا الطلب ؟ وى ! ان المزايدة لا تنقطع في ذهنه ، كان أولا أن ينقل إلى كنيسة بلده ، ليسعد بقرب أهله ، ثم أصبح أن ينقل الى ميلانو لينجو من وحدته ويتعم بالمدينة الكبيرة ، ثم . ثم ماذا ، هل يطلب ترقية ، وأين ؟ ولكن أليس من حسن اللوق أن يكتفى بطلب نقله الى روما ليكون الى جانب صديقه وى ، ماله لا يستقر . : اذن فليترك هذا الطلب الآن . انه حين يقابل صديقه البابا يفتح الله عليه وينطق فمه بما فيه الخير له ، من يدرى . . ربما عينه البابا من تلقاء نفسه سكرتيرا له . . فيتملقه جميع زملائه .

ولما وصل إلى روما طار إلى « الفاتيكان » ، لم يرعه منظر حراسه من السويسريين « ولعلمهم من الإيطاليين » وهم عمالقة ، في ثياب مزخرفة ، وبأيديهم أسلحة القرون الوسطى التي تخيف أكثر مما تجرح . . . ضحك في سره وقال حين أ همس لهم أن البابا صديق سيحنون الى الرعوس .

قطعوا عليه الطريق وسألوه : ماذا تريد؟ أجاب بلهجة متكبرة البابا ضاحق وأريد أن أقابله .

لم يحنوا له رعوسهم بل نظروا إليه من الرأس إلى القدم ولم يفتحوا فمهم ، ولكنه أحس من وقع هذه النظرة أن قدره قد نقص قليلا ، سلمه واحد منهم إلى زميل في فناء القصر فسأله : ماذا

تريد ؟ أجاب بلهجة أقل وثوقا وأكثر حدة : البابا صديق لى وأريد أن أقابله .

فنظر إليه من رأسه إلى قدمه ، أحس أن العرق يبلله . « وسار به الممرات الطوال إلى أن سلمه لقسيس فى مكتب فسأله : ماذا تريد ؟ أجاب وهو محقق يتصنع الصبر والأدب : البابا صديق لى .

فنظر إليه من رأسه إلى قدمه فأحس أن ملابسه قدرة جدا مع أنه لبس أنظف ما عنده . وسار به فى ممرات طوال حتى أسلمه لثالث وهما لرابع وهما لخامس ، أحس أن خاتمة المطاف عنده وكان ريقه قد جف فسلك زوره وقال بلهجة استعادت وثوقها : لو علم البابا بخبر قدومى لأمر بلخولى عليه فورا ، البابا صديق لى :

فنظر إليه من رأسه إلى قدمه وقال له انتظر .

ومضت ساعة ثم ساعتان ثم قيل له ، « انتظر حتى يأذن لك البابا بالدخول عليه » ومضى اليوم ولم يصله الإذن فخرج يجرر أذياله ثم كان أول شخص يصل فى الصباح الى الفاتيكان ومكث الى المساء وخرج وهو مضطجع الجسم ، ومر يوم ثالث ورابع وأيام أخرى لا يعرف عددها . . وأخيراً جاءه الإذن فلنخل على البابا فوجده كعهده به ، يشع من عينيه الذكاء وسعة الحيلة وقوة الإرادة ، قال له البابا :

— أنا شاكر لك يا صديق زيارتك لى . ، ولكن ينبغي أن تعلم أن الأصدقاء تختلف اذا اختلف الزمان ! فوداعا وعد الى كنيستك ولا تنعب نفسك بالحجى الى روما .

والغريب أنه شيخ من الجميع باحترام لم يعهده منهم حين قدومه فصدقه وخرج وعلى شفثيه ابتسامة حلوة . . وإن كان قلبه يهمس له : ياخييتك ! لقد رجعت بخفى حنين .

والحكاية الثانية تروى عن جوته شاعر الألمان الأكبر ، وأنت تعلم أنه كتب قصة « آلام فرتر » وهو شاب يافع ، طلبا للشفاء من حب رومانسى عنيف حزين معا ، بطلته « شارلوت » وهى فتاة من أسرة طيبة معيلة ، رآها ذات مساء فى دارها مذعورة من عاصفة هوجاء يقعع رعداها فرق لها قلبه وأحبها وانتهى هذا الحب كما يقضى المنهب الرومانسى بفاجعة شديدة وانتحر فرتر .

إننا قد نقرأ اليوم هذه القصة بصعوبة كبيرة ، ولا نتصور كيف أمكن لها أن تحدث كل ما أحدثته من ضجة ، اشتهر جوته بفضلها وطار اسمه من ألمانيا الى فرنسا ، بل أصبحت هذه القصة إنجيل الرومانسية فى باريس حتى أن زعيمها شارل نوديه كان لا يرى الا ومعه نسخة منها مجلدة بحبر أسود ! هذا مع أن جودته قد طعن الرومانسية ووصفها بأنها أحلت المرض محل الصحة : الشبان فى ألمانيا يقلدون فرتر فى ملبسه وتصرفاته بل يقال : ، ،

والعهدة على الراوى — أن عدد الشبان المتحجرين بأسا من غرامهم  
قد زاد بعد هذه القصة زيادة كبيرة . لا شك أن شارلوت كانت  
فخورة بهذه القصة التي خللت ذكرها .

ومرت الأيام ، فإذا بجوته يصبح مستشارا لحكومته ، وتكون  
شارلوت قد تزوجت ورزقت بابن ، فلما أتم تعليمه رأت أن من  
حقها على جوته — وقد ألهمته قصته الخالدة — أن يجد لابنها ،  
وظيفة محترمة ، وبخاصة لأن أمورها تدور دورة عكس والزمان  
عصيب . إذا كانوا لم يتقابلا منذ أول لقاء لهما فإن هذا الانقطاع من  
شأنه أن يزيد من قدرها عنده ومن لفته على رؤيتها .  
فسافرت هي وابنها إلى ويمار ، وطلبت مقابلة جوته .

إنها أرجعته إلى الوراء أكثر من أربعين سنة . جددت له ماضيه  
كله وكانت تحسب أنه سيلقاها وهو دافع العين ، حتى بها ،  
يسألها بلسان متلجلج عن أحوالها ، ظنت أنها ستجد فيه جوته  
الشاب الذى أحبها وتدلّه فى حبها حتى كاد أن يقتل نفسه ، فيرق  
لها قلبه ويتهدج صوته . ولكنه حين دخلت عليه وجدهته لوحا من  
الثلج ، كأنما لم تكن أمامه شارلوت التى تمثل له شبابه كله ، وضع  
قناعا على عينيه ورفض أن يبصر ، ورفض أن يذكر ، مافات

فات ، مات إلى الأبد، قابلها باحترام ولكن بغير حفاوة ولا ألفة، كأنه  
يقابل زائراً كريماً لأول مرة .

ولكنه جبر بخاطرها وعين ابنها في وظيفة . . . لا شك أن  
شارلوت خرجت من عنده وهي تقول تلك الكلمة التي كررها البابا  
من بعدها : إن الأصدقاء تختلف باختلاف الزمان .

( « المساء » : ١١/٢٧ ١٩٦١ : ص ٨ )



## إلى أصدقائي السياح

**لولا** وثوقى من طيبة قلبكم وحبكم للابتسام لما وجهت إليكم هذه الكلمة فالسياح هم فى الأصل قوم يومهم نصفه عمل وإرهاق، ونصفه أشواق وأحلام ، النشرات السياحية المصورة فى أدرج مكاتبهم أو تحت وسائدهم أحلام جميلة تشبه أحلام ورقة اليانصيب التى يشتريها المفلسون أمثالى. وقد خبرت بالتجربة أن بكل أصحاب الأحلام أناس طيبون عاجزون عن فعل الشر .

أحب إذن أن أراكم تبسمون حين أقول إنكم وأنتم تتفرجون علينا قد لا تشعرون أننا بدورنا نتفرج عليكم .

فأنتم جنس عجيب من الناس موجود من قديم الزمان لكن طبيعه لا يتغير ، جنس له فضائل مختلفة فى التفرج عليها متعة كبيرة .

الفصيلة الأولى : السائح عداد التاكسى ، هو المغرم بقطع

المسافات ، تردد سعادته بقدر زيادتها ، حسابه بالآلاف من  
الكيلومترات لا بالعشرات أو المئات ، تذاكر سفره مجلد ضخيم ،  
وجواز سفره أطلس جغرافى ، لا يستقر فى بلد يوما إلا أزمع  
السفر لبلد آخر ، لو نطقت حقايقه لاشتكت من شدة القلقلة  
ولإسراعها إلى الشيخوخة من كثرة الفتح والقفل . . حياة هذا  
الرجل تنقضى فى السيارات وانقطارات والمطارات ، إننى أعرفه ،  
إنه يمشى منطلقا كالسهم ، جذعه مائل للأمام ، أراه فى المطارات  
فى الساعة الثالثة صباحا وهو مورد الخدين مفضل العينين وأنا  
شاحب محمر الأجفان ساخط على الدنيا أثناء وأتمنى أن أجد فى المطار  
فراشا أتمد عليه ، فأحب الأوضياع عندى لجسدى هو الوضع  
الأفقى ، إننى أقترح أن توضع فى المطارات كما على ظهور  
السفن كراسى طويلة ، ولكل كرسي بطانية ومخدة .

هذا الرجل ليس فشارا ولا نخاعا ، ومع ذلك إذا توقفت به  
الطائرة نصف ساعة للتزود بالوقود فى مطار بومباي ( وهو  
فى خلاء يبعد عن العمران ككل المطارات مع الأسف بأكثر من  
٣٠ كيلو مترا ) جرى لشراء كروت بوسثال وأرسلها إلى أهله  
وأصدقائه يقول ثلاث كلمات عظام « تحية من الهند » ثم يروى  
لهم عند عودته « وزرت الهند أيضا ! إنها كانت رحلة طويلة ..  
إنه رجل من دينته إذا سافر من طريق أصر على أن يعود من طريق  
آخر . . وحبلى لو كان أطول ، وحتى لو كان مستعجلا ،  
سأعطيك عناوين الكتب التى يجب قراءتها » ١٠٠ ساعة على ظهر

حصان » و « ١٠٠ ألف ميل فوق المحيط بين القطبين. » وغاية  
أمله أن يكتب هو مؤلفا بعنوان « حول العالم في أسبوع » .

وكننت أنا في وقت من الأوقات من هذه الفصيلة ، لكن  
قلة مواردى جعلتنى أعدل عن القارات إلى الجزائر ، فنزلت في  
جزيرة يونانية في شرق البحر الأبيض - هي جزيرة ميداليين - لالكي  
أشاهد آثارها ، بل لأجوبها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، واستأجرت  
حمارا ، أريد أن أقلد روبرت لويس ستيفنسون بعد أن قرأت  
كتابه « رحلات مع حمار » ، وكننت أعددت للحمار بذلة وكوب  
سواري ؟ ففي اليوم الأول مشيت بين حقول القمح من اليمين  
وحقول التبغ من اليسار وصعدت الهضاب ونزلت الوديان ، وحين  
أتى الليل نمت - أو لم أتم من كثرة البعوض - في حجرة تعلو  
دكان يقال ، وفي اليوم الثانى وجلستنى أسير بين حقول القمح  
من اليمين وحقول التبغ من اليسار وصعدت الهضاب ونزلت الوديان  
وحين أتى الليل كننت ضيفا على يقال .. ومر الي م الثالث كالثانى .  
والرابع كالثالث ، فقدمت استقالتى من هذه الفصيلة العجيبة من  
فصائل السياح . وعدت إلى الميناء لأخرج مع الصيادين لصيد  
السماك . . وبقيت جالسا في القارب طول النهار ، في موضع  
لا يتحول وهذا هو جزاء غرامى بقطع المسافات .

لحسن الحظ سيجد هذا السائح في بلادنا ما يصبو إليه ، وكأن  
أجدادنا الحكماء صرفوا طبعه فلم يقيموا أفخر معايدهم على شاطئ البحر

بل في أقصى جنوب الوادي ، فإذا زارها هنا للسائح أضاف إلى قائمة الحساب في غمضة عين ألفين من الكيلومترات على الأقل . . .  
مبروك عليه .

الفصيلة الثانية السائح البالون ، الرجل المغرم بأن يقعد على قمة أعلى علم في المدينة ولو كان مدينا ، له صورة وهو على قمة الهرم ( وهي لحسن الحظ ليست مدينية ) وصورة على قمة برج إيفل ، وصورة على قمة برج بيزا ، وإذا كان أمريكيا لا أظن أن له صورة على قمة ناطحة السحاب ستيت إمبير ، إنه في بلده ليس سائحا ، لذلك هو يتركها لزملاء فصيلته وبني جلدته من الغرباء . . . وهنا هو شأني فأنا إلى الآن لم أصعد إلى قمة الهرم وإنما سعادتي أن أتفرج على السياح وهم يصعدون إليها أقول لنفسي دائما « غداً ، وإن غداً لناظره قريب » .

هذا الرجل يصعد بالأسانسير ، فإذا لم يجده صعد على قدميه ، إن ركه لا تعرف التعب ، ورأسه لا يعرف الملوار ، أخشى ما أخشاه أن يطالبنا هذا الرجل بأن نركب أسانسير على الهرم الأكبر ، وهو لا يدري أننا إذا فعلنا حققت علينا لعنة الفراعنة الذين يهيمهم المحافظة على جلال الهرم وروعة لا على إبراد متحصل من بيع التذاكر . . . فلا بد لك يا صديقي أن تطلع بقدميك ، وأنصحك أن تحسب الزمن الذي لزمك للطلوع والتزول ، فعندنا رجل يصعد وينزل في ٦ دقائق ! إن صاحبي يصعد لأنه يريد أن يطل على شيء ، أو يشهد شروق الشمس أو غروبها ، إنه يصعد أحيانا كثيرة في عز الظهر ، إنما

يفعل ذلك لأنه يريد أن يضرب رقما قياسيا ولأنه صيد ، لإلحاح شديد غريب في نفسه ، بأن يصعد ويصعد حتى يتفرد عن العالم والخلق كله .

لهذا السائح بشارة عندي ، فقد أقمنا في القاهرة برجا يعلو عن الهرم بأربعين مترا ، وله مصعد ، وفيه مطاعم ، وهانذا أنتظر صورته فوق هذا البرج الذي لا بد أن ينار بالليل حتى تهتدي به الطائرات .

وكنت أنا في وقت منتحيا إلى هذه القصيلة ولكني قدمت كذلك استقائتي منها بعد زيارتي لمدينة فينيسيا ، فقد صممت ألا أغادرها إلا إذا صعدت لقمة برج كنيسة سان ماركو: فصعدت وما كنت أصل ومن قبل أن ينقطع تلهي أو أن أبلع ريتي حتى بدأت الأجراس الكبيرة تدق بأعنف قوتها ، كأنها كانت في انتظاري . أحسست أن جميع مضارب الأجراس تلق على رأسي ، ولولا حلاوة الروح لرميت نفسي من البرج وأزعجت حمام الميدان ، الأليف إزعاجا لا ينساه طول حياته . . . ومنذ ذلك اليوم تبت عن الصعود .

الفصيلة الثالثة : السياح القوافل ، الذين لا يمشون ولا يركبون ولا يدخلون المتاحف ولا يأكلون إلا في قطع ، وراء دليل في

يده نحيط سحرى يجذب به وجوههم وعيونهم جميعا فى وقت واحد فتدور كما يشاء مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار ، ومرة إلى تحت . . هذه الفصيلة هى أصلب أنواع السياح أعناقا ، وأحب فى أحيان كثيرة أن أغافل الدليل وأندس وسط هذه القوافل فى المتاحف . وأشهد حربا خفية بين الدليل والقافلة ، حربا هى أشبه بلعبة الكاش كاش (الاستغماية ) الدليل يجذب عيونهم بنحيطه السحرى إلى صندوق مغطى بالزجاج فلا تستقر لحظة حتى تزوغ إلى اليمين أو اليسار أو إلى فوق أو إلى تحت . . ولهم حق ، فما فى الصندوق إلا قطع مفتتة من فخار كأنك كسرت فيه إبريق شاي فلاحى ، هذه الفصيلة أسراب الطيور المهاجرة حين تحط فوق الأشجار والسلوك والأسطح وتملأ الدنيا بضجيجها ثم تذوب كقص الملح وراء الدليل أيضا . هذه الفصيلة هى التى تحتل المطاعم والفنادق والملاهى وتطرد عنها أهل البلد طردا . . رأيت أتم صورة لاحتلالها لبلد وأنا فى باريس فى شهر أغسطس ، حتى كانت نصيحة الأصدقاء لى إذا أردت أن أقول لهم فى شارع الشانزليز كلمة سر أن أقولها بالفرنسية . . ويخيل لى أنه لو انفصل واحد من هذه الفصيلة عن القافلة لأحس بانزعاج شديد وأصبح لا يدرى ماذا يفعل بنفسه ، هذه الفصيلة هى أحدث الفصائل جميعا ، ويخيل لى أنها من سلالة أمريكية . . فأمريكا هى البلد الذى يورد لنا كل المستحدثات .

ولو أننى لست من هذه الفصيلة إلا أننى أحبها ، لأنها هى التى

أنزلت للذة السياحة من احتكاك الأثرياء والأغنياء إلى أوساط الناس  
أمثالي ، ان قلبي قريب إليهم ، ولم يساورني طمع في أن أحدث  
سائحا إلا من هذه الفصيلة .

الفصيلة الرابعة : السائح المكتشف : وهو أكثر السياح كسلا  
لا يجب أن يستيقظ على جرس منبه أو دقة تليفون من مكتب  
الفندق بأن الليل وصل وأن جميع رفقاته قد نزلوا . . فهو يجب  
أن ينفرد بنفسه لأنه شديد الثقة بنفسه ، لا يهتم في شيء أنه لا يعرف  
كلمة واحدة من لغة البلد ، وكما ينفرد من القوافل لا يهتم بقطع  
المسافات أو بطلوع الأبراج ، إنما غايته الأولى هو أن يستكشف  
ما لم يكتشفه أحد من قبل . . هو بالرغم من أنه غريب في بلد  
مجهول يتصور نفسه أنه متنكر Incognito فهو يخرج من الفندق  
متلصصا كنتجورم السينا ، لا يريد أن يراه أحد أو أن يسأله « إلى  
أين أنت ذاهب ؟ » إنما هو يقول لنفسه ، سر إلى حيث تقودك  
قدماك . . على بركة الله . ) هو الذي تراه فجأة في أماكن لا تعلم  
برؤيته فيها ، في أحد الأحياء البلدية ، وحوله جمع من الناس  
يحاول ان يتحدثهم بلسانه فيجيبون عليه بلسانهم فلا يفهمون إلا  
بأصديق الوسائل وأقدمها : « تبادل الضحككات » . . هو في طبعه  
لا يحب إثارة الضجة أو لفت الأنظار ولكنه في الحقيقة رغم تنكره  
أكثر السياح إحداثا للضجة ولفتا للأنظار .

هذا السائح إذا عاد لبلده لا يحدث أهله وأصدقائه عن القاهرة

ومبانيها ومتاحفها بل عن « روح القاهرة » أو « طابع القاهرة » وعن عدد المرات التي تاه فيها وهو إلى ساعة حديثة لا يدري كيف عاد بعدها إلى الفندق ، وهو لا يقسم البلاد التي يزورها حسب الموقع الجغرافي أو حسب الديانة أو اللغة ، بل تارة بحسب رواثمها وتارة بحسب ضجيجها ، وتارة بحسب سحنة أهلها ، هل هي مبتسمة أم متجهمه . . فهو رجل يحب الاستكشاف ، والنفوذ إلى المعاني واستخلاص العبرة من التفاصيل ، وهو أكثر السياح عرضة للوقوع في خطر اللبذ . أن يتخلف في بلد تعجبه ، أو أن يعود إلى أهله وقد زادت حقائقه حقيقية هي زوجة معلقة بلدراعه تحيي أهله برطانة أعجمية

أرأيتم أصدقاءى السياح . . . إننا أيضا نجد متعة في التفرج عليكم ؟

( مجلة « الكاتب » : العدد الثاني ، مايو ١٩٦١ ص ٧٠ )







## الباطنة والشجرة

**حكاية** قديمة تعود إلى فحنى وتلح على أن أدويها لك من جديد :  
دانخت الأرض وهى تلور فى الملكوت أول مرة ، بصرها  
زائع وهويلف ويشتر بالبرق ، يدها على الرجة لا تحسن  
ما تملك . سر خلقتها — والعهد به قريب — انهم عليها من شدة  
دوران رأسها ، فى ضميرها الطفل سؤال ينغر كالبحر ،  
أهى لا تزال فى حمى ربيها أم أصبحت منبوذة من رحمته ،  
وهل صغير دورانها نفمة نأى فى لحن مشترك أم أنين منبعث  
من ضال هيات أن يجد له هلى ، ليس لديها للإجابة على هذا  
السؤال همة أو صفاء ، لابد أن تنتظر أجيالا عديدة حتى يهبط  
الوحى .

وقليلا قليلا ألقت دوختها وانتظمت عليها حياتها ووعيا وملك

قياد بصرها ويدها ، لو كفت عن الدوران للحقتها من الاستقرار  
دوينة أخرى من نوع جديد .

التفت حينئذ إلى كنوز أحشائها ، رأت بذرة محتشمة لأنها حبل  
فسألها : ما أنت ؟ أجابت : أنا مر النماء ، أم الزهر والثمر ،  
أنا الظلال الوارفة ، لن يصفو الجو لحي إلا بفضل أنفاسي ،  
أنا الخير والزينة ولا أعرف اسمي بعد .

قالت الأرض لها :

— أخرجني للنور في نعمة من رضاي ، إنني سأباهي بك .  
فانبثقت على سطح الأرض شجرة عظيمة ، تجللها من الدهشة  
فرحة ان تزول عنها أبداً ، جذع كالطود تنشب جذوره بالثرى ،  
وأغصان ترفع أكفها للسماء وفروع تفنت في أشكالها ، أما اللعب  
فقد بقي للورق ، وانطبع في قاموس الكون أولى كلماته :  
سلام ودعة وحنو وخير وبركة وجمال .

ثم التفت الأرض فرأت كرة من اللهب تموج وتتوذب .  
قالت لها : ما أنت ؟

أجابت : أنا الغيظ ، أنا عكارتك . ألا ترين قلبي من حديد ؟  
قالت لها الأرض : أعوذ بربي منك ، لا هناء في صحبتك ،  
ان بطني نظيف ، أغربني عن وجهي وأنت في نقمة مني . أنت  
سبئي ، عليك اللعنة .

فانطلقت إلى الجو كرة اللهب كأنما ركلتها قدم ، لها ولولة

ستقتبسها شياطين الليل فيما بعد ، ثم انزعت على وحل غير بعيد  
من الشجرة ، فخرق الارتظام قلبها .

انقلبت الولولة إلى صرير أسنان من الغل والمهانة عرف  
الكون فيه لأول مرة كيف يكون الجؤار والزحير (١) .

ومضت أيام عضها الجوع بعدها بنابه ، إنها مجتثة بالخلور ، فطومة  
من ثلثى الأرض ، فأخذت تأكل لحيها حتى هبطت هالته وانشتت  
حمرته القانية وأصبحت غلالة باهتة ستكسو فيما بعد وجه كل  
محنق ، ثم صهدا باخ شيئا فشيئا حتى لم تصبح بعد بحاجة  
التوهج إلا قطعة خلية من حديد بارد قلبها مثقوب . . هكذا  
ولدت أول بلطة كسيحة .

رنت ببصرها فوق على الشجرة لأول مرة ، فارتج من  
الحسرة قلبها ، انها محملة بالزمر ، ألوانه من الشفق ، يطلع عليها  
الفجر فتمنح نفسها للندى وتز طربا ، ويأق عليها المغرب فتطمى  
وتنعمس وهي تسبح ، بين الأوراق والخلور من سر الحياة  
عصارة طالعة نازلة ، معمل لا يكف عن الحركة ليس له دوى  
يل حسيس يحسبه الغافلون صمنا .

وقالت البلطة لنفسها وهي تهدد حسرتها : لا بأس ، هذه  
عاجزة مثلى محرومة من الحركة .

---

(١) الجؤاد : رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة ؛ والزحير أو الزحار :

إخراج الصوت أو النفس بانين من عمل أو شدة .

وهبت أن تنفخ لتنسى جوعها فاذا بها يلقها ديب يطرق  
سمعها كنبش الأظافر ، لا يكل ولا يمل ، ما هذا ؟ انتهت فأحست  
يجلور الشجرة تسعى وتمتد في بطن الثرى ، وأدركت أن هذا  
النبت النحيل ، له وهو يشق طريقه قدرة على ثقب الصخور  
القاسية .

فقال نادية في سرها : وبلى ، هيهات أن تجوع ، الجوع  
لى وحلى يا ضيعى .. ولكن لا ضير . . إنها عقيم مثلى .

وهبت أن تنفخ لتنسى جوعها لما يشرح جفاف حلقها  
فاذا بها يزعمجها صوت قليلة كان لها وقع الرعد عابها ، أى شيء  
هذا ؟ تلفت فهاها أن الشجرة تلفظ بقوة ، وكأنما عن عمد وخرص  
مقصود ، عن بطن زهرة لها بلرة هى ذرة ضئيلة ، حملها  
الرياح بعيداً عن أمها قليلاً ثم تهادت وانغمرت وتم بينها والأرض  
لقاء ولود .

كاد الحق يفتت البلطة لولا أنها من حديد ، حتى لوماتت  
الفرجة طال عمرها أو قصر . وإن عمر هذه اللعينة لابد سيطول .  
فستجد وراءها من يخلفها ويدمى عزها ويخلد سيرتها . أما أنا فاذا  
بقى لى ؟

قال لها ضميرها الأسود . الانتقام ! ! فنطقت على الفور  
بتحية رفيقة ألقتها على الشجرة فسألتها :  
... من أنت ؟

لم تقل لها أنا البلطة . بل أبقت سرها مكتوما وأجابت ،  
أنا أختك قطعة الحديد ، خرجنا من بطن واحدة ، أنا لم أسألا  
من أنت كما فعلت معي . لأنى أعرفك ، وهل يخفى القمر ؟ هناك  
فرق بينك وبينى ، أنت حية وأنا كسيحة ، هذه سنة الكون ؛  
ليس لى أن أناقشها بل أقبلها على الرأس والعين لأنى مؤمنة ؛  
لكن هذا الفرق لا يمننا من أن نعيش فى صحبة جميلة ،  
أخلص لك وتعطفين على .

ألقت أول درس فى النفاق سيتناقله عنها البشر من بعد :  
الأتخادع بالكذب صرفا ، بل تقول من الصدق نصقه ليعينك  
انبهار السامع بجماله على إخفاء دمامة الصف الثانى المختبئ فى صدرك .  
إن أردت أن توقع برجل فابدأ أولا بملحه ، إنه سيستيم لك  
فتمكن بذلك لطعنك .

وحسبت الشجرة أنها نجوى أخت لأخت ؛ لا بأس أن  
يتحدث بها قلب إلى قلب ويكشف عن أشجانه ، فما نفع  
الأخت إذا عجزت عن أن تعين على شقاء الأشجان ؟ فهمست لها  
الشجرة بصوت حنون .

— لا عليك ، هونى الأمر ، قد علمتنى تجاربى الماضية ،  
وهى طويلة ، أن أقتل حماقة هى تغليب حكم اليوم الحاضر وحده  
على الزمن القادم كله ، إنه فى علم ربنا ، ورحمته لن تنقطع ،  
واعلمى أن سنة هذا الكون من حولك أن يسير من حسن

إلى أجسن ، قد تقابله صهاب وقد تصادفه نكسة ولكنه  
ستغلب عليها ويعود للسعى وقد اشتدت قوته وزادت خبرته ،  
بلواك أنك في أول مراحل التكوين وهي فترة عصبية ينبغي  
الصبر عليها إن أردت أن يطلع عليك غد مشرق ، ثقي ؛ انني  
أرى الغيب ، سيجيء عليك يوم تمتد لك فيه يد صناع فتشفيك  
من كسلحك وتجعل منك آلة نافعة في السلم توضع في محراث  
فيشق الأرض ويكسوها بيساط من سندس ، نافعة في الحرب  
أيضاً إذا لزم الدفاع عن النفس ، ولن تخلو الدنيا من الاعتداء ،  
ستصبحين سيفاً بتاراً في يد الحق ، بفضلك ينهزم العدو  
وينمحي العار وتسترد الكرامة والشرف وأما أنا فلاني معك ،  
لا يسعدني شيء أكثر من أن تتوثق صحتنا وصادقتنا ، سأحدثك  
كل يوم من أجل التخفيف عنك بقصص رواها لي الدهر .

أجابتها البطة :

— ليس عندي يا حسرتي ما أحدثك به إلا جراحي وآلامي ،  
لا تخطئي نظرتي الشاحصة إليك ، إنني حين وقعت رقدت  
ووجهي مائل عنك فلا بد أن أدير نحوك عيني فإذا رأيت بها  
أحياناً بريقاً فاعلمي أنه من فرط لفتي على التحدث إليك .  
ضمنت بذلك ستر هفوتها إذا زل ضميرها وبان في عينيها .  
وأسائلة التفاتاً يحسبون للمستقبل كل حساب ولا يتقدمون إلا إذا  
أخذوا منه الضمان ، يماثلون المنتصر ويماثلون خضمه المهزوم



فقد تعود إليه الغلبة في يوم فيذكر لهم فضلهم في العطف عليه  
زمن محنته .

أخذت الشجرة تروى لها كل يوم طرفاً من قصص الدهر ،  
فخيرة خلقت لشفاء النفوس ، كيف يغفل عنها الطعين وهي الياسم  
بلحراحه .

أما البلطة فتحدثها — لترقق قلبها — عن الظلام والحريق  
والضياع والانفراد والوحدة والرعب من المجهول ، والخوف من  
تألب الأعداء وحين تستنفذ جمعيتها تتحدث عن قناعتها التي تراها  
دعامة آمالها الكبار في المستقبل .

كل هذا والانتقام مستعر في قلب البلطة ، بلغ من أجيجه  
أن أصبح له عقل يترك وينصح فهمس لها :

— إن طرفك لحسن الحظ في عمر الريح ، أنت لا تعرفين قوة  
هذا المخادع الذي يزعم أنه محض هواء ضعيف ، إنه ينقل الجبال  
ويهلم الأطوار (١) ، لن ينقطع عنك إلحاح له كالبرد هو الذي  
سيسن لك حدك ويهيك قوتك ويضع في يدك سلاحك ، ولو استطعت  
أن يخرج من صدغك لسان ولو كان رقيقاً كلسان الأفعى قالعياً به  
أنت أيضاً حدك بالليل في غفلة من الشجرة ، إذا طلبت من الزمن  
عونا فأعينيه أنت أولاً .

وكانت الشجرة تستيقظ أحياناً بالليل على صوت لحسن لسان

---

(١) جمع طود : وهو الجبل العظيم الدامب صعداً في الجو .

الأففى وهو أشد خفاء من صوت حك مبرد الريح ، لأنها تسمع  
بضميرها لا بأذنها ، فتسأل جارتها ،

— ماذا بك ؟ أى شىء تفعلين ؟

فتجيبها البلطة وهى تلهث وتلعثم :

— إننى أتكتك من البرد ، ولولا أن غياب وجهك عنى يشقىنى  
لكنت سألتك أن تطرحى على حفنة من أوراقك تغطىنى ، إننى  
أفضل الموت من البرد عن أن أحرم من رؤية طلعتك البهية .

بلغ النفاق فى اطمئنانه لنجاحه أقصى مداه فهما وجاوزه ،  
وكادت الريبة تلحقه ، وكل بادئ بنفاق غيره ينتهى بنفاق نفسه .

وأحست الشجرة لأول مرة بشىء من القلق وذبلت بعض  
أوراقها وسقطت قبل الألوان ، ولكن الربيع كان قادما بخيله ورجله  
ومواكبه وأعلامه ، فنسيت فى عيده أوهامها ، وعادت تروى  
لجارتها قصص الدهر بصوت أكثر عمقا واتزاناً .

وزاد احتراس البلطة وأحست تكتمها ، وقالت لنفسها : لا ضير  
أن أصبر سنة وستين ، بل ثلاث سنوات . بل العمر كله من أجل  
أن أبلغ فى يوم هدى .

كفت عن أن تلعق الحلد بلسانها مادامت نأتمته (١) توقظ الشجرة  
من سباتها واكتفت بمبرد الريح .

---

(١) التامة : الصوت الضيف الخفى أيا كان .

وجاء الموعد الذى صبرت له وأصبح طرفها لامعا قاطعا كحد  
السكين كان يوما وديعا من أيام الخريف ، النسيم ترياق والسحب  
تتمشى كالبحارى على مهل ، شفاقة الثوب ، فقالت البلطة  
للشجرة :

— تذكرين يا أختى يوما قلت لى فيه إنك ترين الغيب وأن يدا  
صناعا ستتقلنى . . هاهو ذا الصدا يكاد يأكلنى ويفنى عمرى ولم  
تقدم لى يد ، لا صناع ولا غير صناع ، لن يبقى إلا القليل حتى أودعك  
ونفترق ، والموت أطيب لكسيح مثلى من حياة مشلولة .

قالت لها الشجرة : وماذا تريدن ؟

أجابت : أنت ملتفة الأغصان والفروع ، وهبك الله منها ما  
يفيض عن حاجتك أليس فى هذا دعوة منه إليك بأن تجودى بفائض  
على غيرك من المعسرين والمحرومين ؟ ماذا عليك لو بعثت لى بعود  
من أغصانك إذا ثبتته وسط قلبى أصبح لى بمثابة قدم أسعى عليها  
فأستطيع حينئذ أن أزورك وأطوف بحرمك .

قالت لها الشجرة : أهلا ومهلا ، هذا منأى .

واصطفت من غصونها عودا صلبا مستقيما وتحاملت على نفسها  
لأنقصه وانتزعته من كيانها ، وألقت به فوق فى قلب أختها حيث  
تريد ولم تكده تفعل حتى دببت البلطة على الأرض ثم اقتربت من  
الشجرة بتأن وقليلًا قليلًا كأنها تجرب المشى أول مرة ، ثم إذا بها

تهوى على الشجرة بطعنات مجنونة حارقة متتالية نريد أن نحتشها من  
على وجه الأرض . وصرخت إليها :  
- الآن نعرف من منا هو الأقوى . . طللا تعاليت على  
وأنا صابرة .

سقطت القشرة وبان للشجرة لحم زكى الرائحة يسيل منه دم  
قان وقالت وهي تشد أليافها حتى تصبح كالصخر الصلب :  
- كان هناك صوت فى قلبى يهمس لى أنك أنت البلطة ، فلم  
أصدقك لأنى لم أكن رأيتها من قبل ، الآن عرفتك يا أختى .

( « المساء » ، ١٩٦٦/١٠/٩ ، ص ٢ )

# الحكاية وما فيها

**ساروى** لك المسرحية من طقطق لسلام عايكم ، هي  
مأساة سأحاول التخفيف من حلتها إشفافا بك وإن أغضبت يوسف  
وهي . لنبدأ أولا برفع الستار :  
الديكور : حي بلدى .

وأنت حر ، إما هو حي متوسط العمر فى أطراف المدينة ،  
غير بعيد من قراقة ، الإسم مسبوق بكلمة « بخارطة » — وهي  
كلمة ضريبة مفصلة من أجله وحده ، المنازل متلاصقة فى صف  
واحد يحاذى الطريق بمثابة سور من طابق واحد ، فلا تزال متهاسكة ،  
اللون الغالب هو البياض ، لأن المنازل من حجر وبغير طلاء ،  
وكذلك التراب أيضا ، أبيض ناعم كأنه طحين طباشير لوئته تلاميه  
علق الحبر بأصابعهم ، فى الجلو خليط من رائحة حريق القمامة

وقمابين طوب (١) ودبغ جلود وتنفس قبور اقتربت ولم تصل  
بعد للقضاء ، رائحة يشعر بها الغريب لا أهل الحى ، للأطفال هنا  
ضراوة واعتداد بالنفس ، زلنطحية ، لأن مجال اللعب أمامهم  
فسيح ، الدكاكين منادر ، والبضائع المعروضة - من حيث الكم  
والكيف - مقيسة على قدرة أهل الحى ، لا يشتري الغرباء منها  
شيئا ، إنه عالم مستقل منفصل ، قانون الحياة عنده ليس هو التنازع  
بل التباعد ، هناك إحساس بأن لا أحد يسأل عن أحد ، لأن كل  
واحد وإن اقترب بجسمه من الآخر بعيد عنه بروحه كل البعد بسبب  
مشاغل الدنيا ، مرور النعش - ولو لعروس - لا يثير أقل اهتمام ،  
الفقر هنا جلده نحش ، كسطح الحجارة النيئة المقتطعة من صخر  
قريب لم تجد بعد من يصقلها ، فجوات الإثنيين كأنما من قرص  
القمل والبق والبراغيث وإن انقرد أهل الحى بلثة حكامها ، إذ أن  
المشاء يغلق الأبواب ويفضى الفتايل ويطلق السعال ، لا تظهر ليلة  
القدر لا فى أحلام اليقظة ولا فى المنام .

ولما هو حى قديم ، داخل أسوار المدينة ، تجدد خبره فى  
الجبرتي ، منازل من طوابق متعددة ، بير السلم كحل ، والدراجات  
نصف متر والحجرات أكثرها مسروقة ، منازل بسياسة ، تقف  
بقدره قادر ، وبفضل تساند بعضها وبعض ، أعى يطلب من أعى  
أن يأخذ بيده ليعبر معه الطريق ، هى أوقاف تحمل أسماء شركسية

(١) القمين : الموضع الذى يرمى فيه اللبن ( أى الطوب الني ) ويحرق  
لبصير أجرا ( طوب أحمر يستخدم فى البناء )

وتركية ومصرية ، أسماء لها رنين كشلى زجاجة عطر فارغة ،  
 ماركة « مية القسيس » نسيت في قعر صندوق وفجأة (على طريقة  
 يوسف ادريس) مسجد هو تحفة ولية ، من حقه أن يمسخ بمندبل  
 من حرير ويوضع على صينية من ذهب ، اللون الغالب هو الرمادى  
 ظل سحب من الذباب ، والتراب أغبر لزج من الرطوبة ،  
 والرائحة خليط من مرحاض وتعفن زيت (١) وقمامة وجثة قطة ،  
 وبهارات وكسب بنر كتان في سرجة (٢) غير بعيدة ، الأطفال  
 عليهم ذل الأسرى في معسكر اعتقال ، الفقر هنا جلده ناعم ،  
 كشماس زكية أبله طول الامتحان ، الحياة هنا ليست تنازعا  
 ولا تباعدا يل هى زحام وامتزاج واختلاط ، روك ووسية (٣) ،  
 ومع ذلك لا يحس أحد بأحد لأن كل واحد قريب كل القرب  
 من الآخر فلا يرى فيه إلا نفسه ، حيان مختلفان ولكن يجمعها على  
 الفقر قانون نصه كالآتي : المادة الأولى والأخيرة : لا يسأل  
 أحد عن أحد .

إن أردت أن تطلق على هذا الحى اسما رمزيا يشير بالكناية  
 وحدها إلى ما فى المأساة من ذبح وإراقة دماء قسمه : اللرب  
 الأحمر . .

(١) وحل .

(٢) معصرة زيت السمسم المسمى سرج

(٣) الروك : كلمة قبطية معناها قياس الأرض بالفدان وتشتينها أى

تقدير درجة خصوبتها لتقدير الخراج عليها . والوسية : أرض مشاع ليس  
 لها مالك .

## الفصل الأول

في حجرة واحدة قلما يقفل لها باب . . يعيش على البلاط كوم  
من اللحم يطلق عليه تجوزا وصف أسرة ، الأم لأنها خائفة من  
الطلاق ملخومة دائما وإن زعمت أنها شملولة ، وأن يديها وصوتها  
ملوبة ، ترى ربكتها وهي تلبس الملاية اللف ، أو وهي تسير  
بها في الطريق ، لا تبدأ عملا وتتمه أو إذا أتمته طسلقته ، والأب  
رجل منهك الجسد ، ينبغي أن يخرج كل يوم ليظفر برزق اليوم ،  
يوهمنا بكلامه أنه يتمنى في قرارة نفسه الموت لزوجه بل للأسرة  
كلها ، تحية لهم صباح مساء : جاتكو مصيبة ، جاتكو داهية ،  
طلعتوا روى الله يطلع روىكم . ثقل العبء لا يجعله يفكر كيف  
يحتمله بل كيف يتخلص منه ، كيف يهرب أو على الأقل كيف  
ينفض يديه ويستقتل لهم ، بدأ تلحين الحشيش علاوة على السجائر  
ويزداد أحساسه تلبدا وتحول « جاتكو داهية » إلى « خفوا عني  
إرحموني ، شوفوا لكم صرفة ، شوفوا لكم شغلة ، سيوني في حالي » .  
وفي يوم يرقد لهم في البيت مدعيا المرض أو أن الأسطى  
طرده ، ترهن زوجته حلة وتطبخ زفرا ، بدل اللوم ، وجد مكافأة  
وبدا يستحلى تلقيح جنته عليهم ، وفي القهوة يضع رجلا على رجل  
ويضرب الدنيا طبنجة .



عند رفع الستار نسمع ابنته تصرخ ، ونعلم أن زجاجة اللبنة  
نمرة (٥) - رحت قدمها وتجيء مسرعة وهي تبكي إلى حضن أبيها  
فيحنو عليها وبكتم الجرح بالبن ، ويبحث في جيده عن قرش  
تعريفه يعطيه لها ويطلب عليها ويقبلها .

هي فتاة صغيرة ، سن ١٢ ، في جسدها سر غريب يحيل  
الفول والطعمية والعلس والفجل والكرات لحما مدكوكا ، لها  
قدارة ودفع أرنب في نحن بلاصى ، أصابع قدميها غير مضمومة  
لأنها تمشي حافية ، سبابتها طالمة نازلة تحاك بظفرها مثبت شعرها  
الكث موضع قرص القملة ، ومع ذلك فالشباب يقهرها ويحملها  
بابتسامته الغامضة ويلتق عليها من كوز شرباته البلدى : سكر ،  
خالص مذاق في ماء نجالص ، ليس فيه حتى ماء ورد ، من أثره  
أصبح الفص الفالصو في أذنها حاوا ، ونور على رأسها كزهر الفل  
زريق أبيض من قماش رخيص تعقد عليه ضميرتها ، ولكن في  
كيانها مع ذلك خللا لا تلاحظه العين وتحار أين هو ، كأن محور  
اتزان جسمها أو روحها قد مال شلودا عن يمين أو يسار ، لعل  
الذى يوحى بذلك هو تقوس ساقها قليلا والطريقة السمجة التي  
تمضغ بها اللبان وتطرق به ، هو كيان لا يشكو من جرح ، بل  
من عض إن يكن رفيقا إلا أن له بفضل اتصاله قدرة على التفتيت  
وحل الروابط ، الأسنان المدغضة هي أصابع اداه لفك تماسك عقدة  
أو تمزيق طرف ثوب .

الابن سن ١٠ دلوعة أمه لأنه صبي على بنت ، تحبه أخته  
أكثر من حبها لأنهما وإيها ، هو مثال الرجولة في نظرها ومنطلق  
غريزة الأمومة في قلبها ، هي التي حملته أكثر من أمه على ذراعيها  
تحرم نفسها من الأكل لأجله ، بسبب دلمه لا يقلح في صنعة  
ويتحول إلى متشرد أو بلطجي .

يزيد رقاد الأب في البيت لا بسبب المرض أو الطرد ، بل  
يقول لهم بصراحة أنه طيقان منهم ومن الدنيا كلها .

تخرج البنت للشغل وتأتي بأجرها ، قلغ بها في وسط لم يجد  
احد للآن تعليلا يفسر كيف يجمع في آن واحد بين متعة متاحة سهلة  
وبين جموع جنسى لا ينفذ ، قطرة صغيرة خرجت على السطح  
فتجمع عليها من المذكور ، الجربان والمتوحش والبجع ، زنقت  
في ركن ، ودصر ثديها ، وانطبعت على فمها وهي كارهة قبلة سبيت  
لها غثيانا وإن استرخى لها جسدها وهزته نفضات كالرعدة وغاب  
سواد عينيها ، وفاحت لها رائحة كالعرق المصنن ، الغريزة الجنسية  
وهي وعاء من بين أوعية أخرى لأكبر نعمة من نعم الله ، نعمة الحب  
بين رجل وامرأة ، تقابلها لأول مرة مقترنة بالقرف والقسوة  
والافتراس ، هذا تمهيد لقبلات ، لها قادمة لا تبالي بفهم أبنجر  
أو طرشان خمر الطافية ، حتى الفتى الحجول الذي زعم أنه ميت  
في دباديب رجالها قد هجرها بعد أن قضى منها وطره ، متعللا بأنه

سمع من آخر أن زميلاً قد سبق له أن قبلها ، وبأن الحمل وجيء  
بالتى روميو فأنكر ثم اعترف ( لأن خجله جبن ) وتزوجها بدون  
مهر ، وتم الطلاق بعد أسبوعين .

فتاة الـ ١٦ سنة أصبحت امرأة اختصرت في سنتين تجارب  
عمر ، اثبتت لها أنها في معركة ، هي وحدها ضد الجميع والجميع  
ضدها ، دنيا كل شاة فيها من عرقوبها معلقة .



## الفصل الثانى

تخرج للشغل من جديد ، بعد قليل تنقلب الجلاية المخططة إلى  
فستان مشجر ، وحذاء الغورية الذى يتفح برائحة دباغة رخيصة  
تزكم الأنف إلى حذاء من أول الموسكى ، من مشمع له رائحة  
لليلة ، وفجأة رآها أهل البيت فرحة لأنها لا تأتى لهم ويدها  
فارغة ، بل تحمل الحيا ودجاجا وتجلس تضحك ملء فمها وهي  
تقول لأختها « خذى والنبي كمان » ثم تدس في يده مصروف  
جيبه .

طريق سهل ، وخطوة تقود إلى خطوة ، ويد إلى يد ،  
طريق حسبه مضموناً مأموناً لأنها تقول : « الدنيا كلها  
كله » .

---

(١) العرقوب : وتر غليظ فوق المقب ، وفلان معلق من عرقوبه كناية عن

استقلاله ومستقليته الكاملة عن تصرفاته .

ولكن لا تسلم عنها يوم ضبطها البوليس أول مرة . حسنت  
أن الدنيا تطرقت فوق دماغها ، وأنها لن تستطيع أن تعيش بعد  
هذه الهيلة وهذه الفضيحة ، وفكرت أن تنتحر ، ولكنها وجدت  
نفسها في حشد من الخبرات هون عليها الأمر فهان بعد قليل . منذ  
ذلك اليوم لم تعد تبالي بشيء ، أنسل آخر خيط من قناع حياتها ،  
حتى لو سال الدم للركب ، وحتى لو ضرب بلطجي بعشقها غريما  
له يسكين يظفرو الاثنين .

الأم هي التي تفتح لها الباب حين تأتي متأخرة . لتدخل خلسة  
وتطبطب عليها كصاحب الفرس بعد مشوار طويل ، وتقول للجير ان  
أن بنتها شغالة في مصنع تريكو فيضاحكون في سرهم . للأم غصة  
تنحدر أحيانا من حلقها إلى معلميها إلى أقدامها ، وتختلط عندها  
مع الحسرة على خيانة أمل زوجها والإعياء من شغل البيت ،  
فترغم لنفسها أن الإعياء والتحسر ضاعا في الغصة ، وأن ،  
القصة ضاعت في الحسرة والإعياء ، الأسرة التي انهدم عليها بيت .  
فماتت إلا واحدا منها لم يبك ، فلما سئل قال : أبكى على مين .  
ولا على مين ..

الأب الآن لا تنقطع من يده نقود تكفيه يومه على القهوة ،  
ولكنها لا تزال قليلة ، والابن زاد دأبه وإصلاحه في طلب  
النقود .

كانت تلغ لهم ما يكفيهم ، تقام صامت على عقد ميثاق .

حرياد ، هم في حالهم لا تسألهم شيئا وهي في حالها كل ما يطلب منها أن تقوم بواجبها ، وبعد قليل وجدت أن الكفاية معناها الفئجرة والتبذير ، وزادت الطلبات فدفعت أيضا ، الريال أصبح لا يقنع به الأخ ، إنه يطلب نصف جنيه ، ورويدا رويدا تحولت الشفقة وأداء الواجب إلى مصلحة وسياسة ، كأن يدها وهي تدفع تقول لهم بصوت عال غير مسموع : لأكسر عينكم وأؤمن حياتي من غدركم . .

ميثاق الحياد تحول إلى ميثاق عدم اعتداء ، لا بين أصدقاء ولكن بين أعداء . . هذا هو طريق الاتصال .

\*\*\*

### الفصل الثالث

لم يبق أوجودا في البيت معنى . فخرجت واستقلت وجاءت بعمة فقيرة تخدمها وتأكل لقماتها من عرق أحضانها ، ونكتسى فوق اليعة يوم العيد بثوب جديد تفرح به كالأطفال ،

كانت قد أصبحت فتاة متمدنة تفهم في المودة والرفق وأنواع الخمر ، عاشرت الطبيب والمحامي وثاميد الجامعة ، وعرفت شيئا من السياسة الدولية ومجموعة ضخمة من النكت البلدية ، حذاؤا الآن بكعب المنيوم من شارع قصر النيل كل شياكنه أنه يعقر قدمها وأصابع هذا القدم لا تزال رغم حبسها الطويل غير

مضمومة بلى ثوب الفتاة الشغالة ولبسها ثوب يفرزها عن الحرائر  
والعفيفات ويدل عليها أينما ذهبت وحيثما جلست ، حتى وهى فى  
المابوه . يحسبها الرأى وسيمة فإذا تأملها رجد ميل محورها القديم  
قد فضح دمامة تجللها من الرأس للقلم وتنبع من النفس ، ترق فى  
أول البللسة غاية الرقة حتى لتحسبها إنسانة مهلبة تبكى شفقة  
للجاجة مذبوحة ، فإذا غولطت فى الأجر بان لها وجه غليظ متجهم  
ينطق بالشراسة والقسوة والبغضاء ، وجهها لوح رسم ملاحه إزميل  
قوس خدها تصل لاعم .

لم ينقطع مددها للبيت ولكن بحساب تدفع مرة وتصهرن مرات  
تقول لنفسها : عينهم فارغة وليس لطلباتهم نهاية ، ولو كان فى  
الثبة ليدئى لفعلوا منذ زمن ، والعمر أمامى مجهول والنهر قاب ،  
فتشترى الأساور : زينة وتحويشاً ، يصلها بين الحين والآخر  
تهديد من الأب ومن الأخ فلا تبالى لأنها جربت أكثر من مرة  
أن هذا التهديد يتحول بالدفع إلى رضى وسكوت . انفصلها عنهم  
سبب اطمئنانها ، ولكنه يتحول أحيانا سبباً لخوف مفاجئ يملأ  
قلبا ، كان حقها عليهم من قبل حق البنت على أبيها وعلى أخيها ،  
ولكن أى حق بقى لها الآن ؟ الشكر على الإحسان ؟ الإحسان  
كما يكسر العين يثير الغيظ وشهوة الانتقام ، نحن لا نسألك إحسانا  
يا بنت الكلب ياساقطة . . بل نحن سكوت على الشرف المهدر ،  
إن سعره غال فى سوق حثتنا ، تشتري الأساور وتبخلين علينا ؟

هذه الأساور ملك لنا تلبسناها عارية ، إلى أن تأخذها في يوم  
حسير جملة لا تقسيطا .

لمسا أحست بذلك حبست يدها عنهم ، لها رب اسمه الكريم ،  
يدهش جلساؤها أحيانا حين يرون دمة تظفر فجأة من عينيها ،  
فتمسحها مكحلة بأصبعها أو بطرف منديلها ، يظنون أن الأغنية  
المنطلقة من المدياع وكالها أنين ونواح هي سبب تأثرها ، أو أنها  
تخفى عنهم قصة حب قديم .

وكان الأب قد تفسخت روحه قليلا قليلا حتى غاضت الشفقة  
من قلبه ، إنه الآن لا يعرف كيف يكسب رزقه ، ولو عرف لما  
قدر ولو أراد ، وقع بيته فجلس بين حطامه ، خير شيء يفعله  
أن يلتقط حجرا ويقلد به ، لا يبالي من يصيب ، الدنيا عنده  
أصبحت بزر موط (١) ، فكل ندالة معقولة ومقبولة . لو بقي له  
إحساس لتحجل من الكاب العقور لأنه أفضل منه وأكثر إنسانية .

وفي ليلة تحمر عيناه من الخمر والحشيش ، يتسأل في يده  
سكين ، إنه يريد أن يخرج بنته من الحياة ويخرج نفسه قبلها  
من الحياة لأنه يرتكب جرمته بحماقة ويكشف سره للبواب ، ويخرج  
وفي جيبه الأساور ليبيعهل بثمان بخس ، ويهنا بليلة فظزية (١)  
قبل يوم القيامة ، يجد شيئا من الخدر ونفسه تمخذه :

---

(١) غير مقيدة بانطلاق حسب هراء

— ستقف أمام القاضي وترفع رأسك وتقول : دفاعا عن الشرف . . سيصدقك الناس فعدك ألف دليل .

يا هل ترى لحظ وهو يذبها تحت النجفة الكبيرة وبجانب الأبا جور الأحمر أثر جرح من زجاجة لمبة نمر (٥) في قدم من كانت ذات يوم صبية ارتعت بين أحضانها ؟

ماتت وهي نائمة ، لو أتيح لها أن تنطق لأشاحت عن أبيها ووجهت كلامها لربيبة نعمتها وقالت :

حتى أنت يا عمي . . تشتركين في المؤامرة . .

( « المساء » : ١٩٦١/٩/٢٥ : ص ٦ )



# فضائل في الشَّلَاجَة

## ● سرحان في ايه ؟

لم أكن سرحانا في تصور الذم الذي أعيش فيه لو كسبت  
لوترية أولو ... اسمع لي أن أكتب عنك بقية الكلام ، لثلا  
أفصح لك أحلام يقظتي ، إذ أحب ألا يضحك أو يدهش لها  
أحد سواي وإنما كنت سرحانا في تأمل هذا الشعور الغامض الخفي  
المتخلف في قلبي بعد معايشة أنماط مختلفة من الناس : وشيئا  
فشيئا يتكشف هذا الشعور الغامض عن إحساس واضح بأن حياتهم  
يكن فيها كالفحيح غلط مستور ولكن ما هو - يا دلي - هذا  
الغلط ؟ .

الذي لا شك فيه عندي أولا أن هذا الغلط المستور هو ونحوه

مرجع شقاوتهم في الحياة وفقدانهم للذة التمتع بمباهجها ، وسبب اضطراب أرواحهم وانزعاجها رغم الهدوء الكاذب على وجوههم ، بل هو علة ترددهم بين الرضى عن النفس ومقتها ، هو مصدر ما يتضمنه مسلكهم من متناقضات يعسر تفسيرها ويعسر بالتالى الحكم عليهم هل هم أخيار أم غير أخيار .

أود بادئ ذي بدء أن أؤكد لك أن الذين أتحدث عنهم هم أناس من معدن طيب ولا ريب ، نفوسهم غير فاسدة ، وأنا من المؤمنين بأن الإنسان مفطور على الخير لا الشر .

#### ● الغلط ..

ولكن الغلط الكامن في حياتهم ليس هو انكارهم للفضائل وصدقها واعتماد الشرف والكرامة عليها ، ولا شكهم في قدرتهم على التمسك بأهدابها ، ولا يأثمهم من جنى ثمارها ، بل هو وهمهم أن هذه الفضائل التي يؤمنون بها هي مع ذلك شيء يمكن أن يوضع في الدلاجة ليحتفظ بسلامته ، ويرجع إليه في الوقت المناسب وعند اللزوم ، لأنهم أصبحوا على يقين بأن هذه الفضائل لا تنفعهم - بل تضرهم - كسلاح يخوضون به معركة الحياة في مجتمعاتهم على هذه الأرض ، وعلمهم هو تأكيدهم أو نخشيتهم

من أن الغير يحاربهم بسلاح من نوع آخر لا يمت إلى الفضيلة بأدنى سبب ، ينبغي لهم أن يقابلوه بثاته وإلا هلكوا ولا يرثي لهم أحد . طالما قيل لهم بالحاح — كأنها حكم شريفة أثبتت التجارب صدقها — إن الطيبة ضعف ، وأن الذي لا تدوسه يدوسك ، واتق شر من أحسنت إليه ، في الوعود الكاذبة راحة وبراعة وسياسة حكيمة ، الغاية تبرر الواسطة ، الطعن في الظاهر مباح ودليل ذكاء وحكمة ، امش مع الريح ، سوء الظن من حسن الفطن ، احذر صديقك ألف مرة ، لا شيء ينفعك غير قرشك ، كل واحد في الدنيا يقول : يالا نفسي ، ليس للنفود رائحة حتى تعرف هل هي زكية أم منتنة الخ الخ .

فهؤلاء الناس يضعون الفضائل في التلاجة ليخرجوا بسلاح آخر للقتال في معترك الحياة ، وفي وهمهم أنهم سيجلونها إذا عادوا إليها سليمة تنتظرهم . أتعرف متى ؟ في ذهنهم : موعد قريب ، وموعد بعيد ...

موعد قريب : إذا دخلوا لأنفسهم بعد المعركة ، فلا بأس للدنيء الكاذب المنافق بالنهار أن يصلي العشاء بخشوع في المسجد ، إنه لا يجد تناقضا في مسلكه ، على غير ما يظن الناس ، فهو صادق في الحالتين ، هو نعم المحارب بالنهار ، نعم المتعبد بالليل ، أو إذا دخلوا لأهلهم ، فهذا الدساس الذي كان لعضته في النهار أكبر الأذى لأحد زملائه يؤدب ابنه في البيت لأنه فتن على الخادمة ،

الابن ليس له عذر لأنه لا يخوض مثل أبيه معركة مريرة ،  
أما الموعد البعيد فهو يوم النصر ، إنهم يترقبون هذا اليوم الذي  
يظنون أنهم سيملكون فيه القوة والاستغناء عن الناس ، إما عن  
طريق البروة أو الجاه ، في يوم النصر سيضعون أسلحة المعركة  
جانبا ، أما الآن فذهنهم يقول لهم : لا ضير أن أضع الفضائل  
في الثلاثجة ، سأعوضها عن إهمالي يوم يحىء النصر ، يومئذ سأخرج  
هذه الفضائل من الثلاثجة وأجلوها وأضع فوق رءوسها أجمل  
التيجان ثم أفرش مآدبتي على قارعة الطريق وأدعو كل من مر  
يشاركني أنسى ، الصمد الذي أغلق مصراعيه من قبل سيفتح  
لهم يومئذ فإذا هو أوسع رحاب .

أكاد أحس لدى بعض هؤلاء الناس حين يشبهون عن شحاذ  
يسألهم قرشا قولهم له في سرهم : مهلا مهلا يا صديقي ، حين  
أصبح غنيا سأعطيك وأعطي كل محتاج بدل القرش جنبها كاملا ،  
هذا هو تفسير قولهم له وهم يصرفونه : « ربنا يعطينا ويعطيك »  
يبدعون بأنفسهم قبله ، فالإحسان عندهم كبقية الفضائل موضوع  
في الثلاثجة إلى أن يتحقق لهم الانتصار في المعركة وتملك القوة ،

### ● الموقف يزداد تعقداً ١ ●

وبزداد موقف هؤلاء الناس تعقداً حين يصيبهم أيضاً داء خبيث فتاك .. هو الخوف من الحياة ، من العسر ، من الفاقة ، من التشرد ، من الضياع ، من الذل والكسوف أمام الناس ، الخوف من الغد ، من المجهول ، من القدر ، فيزداد اعتقادهم بأن الفضائل ينبغي ألا توضع في التلافة فحسب بل في « الفريزر » ذاته من داخل داخله ، والمعجيب أن هذا الداء — لأنه من ثمار الحضارة الآلية — يصيب الأذكياء قبل الأغبياء ، والمتقنين قبل الجاهلاء .

من معارف موظف في إحدى الشركات ، هو شاب موهوب بلغ النروة من العلم والنباهة ، متعدد الملكات ، لو وزعت على عشرة لأغنتهم ، قادر على أن يجعل الغير يحبه بلا جهد من الطرفين ، حرت زمتنا في تفسير نظراته المقشورة البراقة النفاذة ، تجد عديداً من أمثالها في أوروبا وقليلاً في بلادنا فنحن أرباب النظرة المنكسرة عن ضحالة أوسحياء .

وفرق نظرة صاحبنا جبهة وضاعة تشع من اتقاد ذهني بديع ، ظننت أول الأمر أنها دليل ما يتمتع به من وثوق بانفس يبلغ أحيانا حد التبهج ، ولكن صوتاً خفياً كان يقول لي : يا رب .. أين

رأيت أنحت هذه النظرة ؟ نعم .. رأيتها في عين الطائر حين يتحول جسمه كله إذا لمخ الخطر من نعيم الراحة إلى عذاب وتر مشهود ، ويمتد رقبتة كأنها تلسكوب يتفرد إلى آخره ، حينئذ تبلغ نظرتة أقصى ما تقلر عليه من تيقظ ولحمان هذه هي نظرة صديقي ، ليست نظرة الوثوق بالنفس ، بل نظرة خوف الطائر إذا لمخ الخطر ، حتى ولو كان هذا الخطر موهوما .

وصديقي هذا لا ينقطع رزقه ، بل يزداد سنة بعد سنة ، فيزداد يا للعجب - خوفه لأن الوقوع من فوق ليس كالوقوع من تحت ، هي حلقة مفرغة لعينة ، إن أجهل قارئ كف أضرار رجل يستطيع أن يؤكد له أنه بفضل مواهبه العديدة سيظل أبداً في نعمة موفورة . دهشت ولم أدهش ( أى والله هكذا ) حين علمت أنه بلا سبب أو داع ولا رد هجوم أو خطر - تطوع بتقديم عريضة للسلطات التي في يدها حق القبض والرفق يستعملها فيها على زملائه أجمعين ، إنه رجل فاضل صدقي ، ولكنه يضع الفضائل في التلاجة ويقول لنفسه « حين أجد الأمان سأقبل الأعداء قبل هؤلاء الزملاء واحداً واحداً على الخدين .

ولكن .. وآه من « ولكن » هذه .. ولكن الفضائل هي الشيء الوحيد الذي يفسد إذا وضعت في التلاجة ، فإنا حين تعود إليها لن نجد لها إلا رمة عفتة ، هؤلاء الناس ينسرون يومهم وخدمهم ، وينسرون قباها أرواحهم ، هي - مع الأسف الشديد - من معدن طيب :

( « المساء » ، ١٩٦١/٦/٢٦ ، ص ٦ )

## الصف المطبق

لى صديق كل الدلائل تدل على أنه يضملى غاية الود والإعزاز ، وبت أعتقد أنه أصبح لا يعرف كيف يصرف أوقات فراغه إلا فى صحبى ، والظاهر أن فراغه أكثر من عمله ، إذا سار معى صرخ إلى وهو يدفعنى إلى اليمين . حاسب ! قدأملك صربة هاجمة بسرعة ، والسواقون مجانين . ونمر بنا السيارة بعد ثلاث دقائق ! ( وإذا اقتربنا من ظلام عمسارة جرنى إلى اليسار - فأنت ترى أننى لا أسير معه أبدا فى خط مستقيم - وقال بصوت ضاحك حنون . هذه العمدارات خلداعة ، تعلق حيناً أنها تمطر أو تندع بالحجارة ثم إذا بها بعد صمت طويل تلفظ فجأة وكأنما عن عمد وبنية الانتقام - كرفسة الفرس المحنق - حجرا يتما واحدا لا يقع إلا على نافونحك .

فإذا جمعتنا حجرة جالت نظرتة تقيس مكاني بين النافذة والباب ثم  
قام وتقل النافذة وهو يقول : لا شيء ألعن من تيار الهواء ، ثم لا يرى بعد  
ذلك مقدار عرق ، والغريب أنه هو الذي يعطس بعد إقفل النافذة ! .  
وإذا جالسنا نأكل في مطعم منع يدي وأنا جائع من أن تمتد إلى  
طبق البامية حتى يأتي لنا الجرسون بليمونة ، وظل ينش اللهباب  
عن طبق لا عن طبقه حتى يبرد ويتجمد دهنه .

هل تترك الآن شعوري نحوه ؟ إنه يذكرني بلادتي ، كنت  
لا أطيق حربتي إذا غابت ولا مجنيت إذا حضرت ، وأكبر البلاء أن  
طبعه قد انتقل إلى بالعدوى ، فها أنذا اليوم أهاجم عليك وأنقص  
حياتك — بدافع من المحبة ، أريد أن أقطع عليك غفلتك اللدنية .  
عن دمامة مسترة لصنف عجيب من الناس ، ولا شك أنه  
يصادفك أيضا ، واعلمني حين تلتقاه من بعدا وتنبه إليه وتلعن  
خاشي إذا أحسنت مثلي بمزيج من القنوط والحق والغثيان .

رسمه الجامع لصوره العديدة مستخلص في ذهني على هيئة واحد ،  
أفندي ينبيء مظهره أنه شديد العناية بهندامه ، مع أن ملابسه  
قديمة ، فالثياب عنده حصن الكرامة ، ومع ذلك فإن أناقته فاقعة  
تلقط العين كأنه يلبس الليلة لأول مرة بعد العمة والقفطان ،  
وهذا الغراب بين الناس لا يسلم في أغلب الأحيان من ثقل الدم .  
إنه يغض من بصره ولا تقابلت نظرتة حتى وهو يتحدثك وجهه  
لوجه ولكن إنسان عينه متقبض متوتر يجمع كالترترة بمسحة من



أحمرار لاذع مخاطف ، فيه خليط من الحياء والبجاجة ، والصبر والكرب ، والدلة والكبرياء ، والاستكانة والتحفز ، قد تهمه ظلماً أنها نظرة مدمن مخدرات بيضاء حين يقوت موعدها .

هذه صفات قد يشترك فيها مع سوية الناس ، ولكن علامته المميزة هي صدره إنه صدر إنسان أصيب في طفولته بمرض الكساح ، فهو كصدر الدجاجة ، مقوس مطبق معاً ، كأنما لوته أثقال جسم ، لا أدري لماذا أحس أنى أو نهزت عليه بأصبعى لرن كالطبلية بصدى الكهوف الغائرة ، هذه ولاريب آثار جوع قديم مزمن ، جوع لا لأن الطعام قليل ، بل لأنه وهو وفيه طعام خسيس يوما بعد يوم ، وهذا هو أنجبت أنواع الجوع وأشدّها فتكا بالمرودة والقضبات .

هنا الأفتلى هو الذى إذا دعى إلى حفلة يتمتع فيها مجاناً بزوائد الفنون خرج منها قاتلاً : حفلة بايظة ، لأن بطاقة الدعوة فيها خلطة مطبعية . وإذا بنت له الدولة شقة رخيصة — وإن كانت العبارة كريخ القرون الوسطى — أعرض عنها تكبراً ، وإذا رأى الساكن البلديد قال : الآن فهمت ، إنها الوساطة والمحسوبية ، أصل بنت أنجت جذة المستأجر تقول لبنت خاتمة جده الموظف المشلول : يا بنت العم .

أفانت ترى أن هذا الأفتلى — وهو مقطوع من شجرة . — خبير مع ذلك فى علم الأنساب ، بحرى وقبلى ، وعمدته قراءة عمود

الوفيات بالصحف بمواظبة لاتكل ولا تمل ، يفلها اسما اسما ،  
وهو لا يعرف أصحابها ولو شهبها ، يكاد يحفظها عن ظهر قلب  
لتنفعه ، لا لشيء إلا لكشف الخبايا .

إذا دعوته إلى هلتون قال عنك من وراء ظهرك ، بعد أن  
يشركك على ذلك إنك إقطاعي ، وإذا دعوته على طبق فول ملمس  
قال في غيبتك إنك أبخل من كلبة يزيد .

إذا كان موظفاً جعل أول همه لا يعرف أصول عمله ،  
بل أسرار زملائه وعلاقة بعضهم بعض وعلاقاتهم برئيسهم ،  
لو طلب إليه أن يكتب تاريخ حياة وزارة لما فهم أنه مكلف  
بتسجيل فضائلها .

وهو طول الوقت يتخذ مظهر الساذج العبيط الذي يكره أن  
يدس أنفه ، بل قد يرضيه أن يضحك الناس على ذقنه ، لماذا ؟  
لأنه معتز بقدرته على طول الترسيد : فهو وأمثاله هم الذين أملوا  
لغتنا العربية — ولهم الفضل — دون سائر لغات البشر بشرف  
احتوائها على هذا الحشد الضخم من صور متنوعة لمعنى واحد  
كان ينبغي لحسته أن لا تكون له إلا صورة واحدة أعنى قولهم في إضمار  
الانتقام : وقد له عليها مبيتها له ، محاططها له تمت ضرره ،  
أنا وراك والزمان طويل ، ضمنتها له ، محوشها له ، فضل يقتل له  
سنين وأيام ، وانخله في مشمه ، ماسك أثره ، وحاططها له  
في قلبه ، فحت له بير ، ولولا الحياء لأضيفت عليها أيضاً عبارة  
« الصبر طيب » لأنها لا تقال عندنا عادة إلا للتهديد .

إذا كنت في مجتمع من الأصدقاء وهل علينا هذا الأفندي  
لا أخرى لماذا أحس - حق وأنا مغضض العنين - بمقدم مركز  
ضغط منخفض ، يتمكر له جرتا وتمخلخل روابظه وتبوخ ناره  
ونحن لا نعرف السبب ، لأنه يخطو نحونا نخطو المتخصص ثم يجلس  
صموتا مؤدباً ، مطأطء الرأس ممتناً كأنما يشرب شرب العطشان .

كل كلمة تخرج من أفواهنا - ولو كانت نافهة - يجدها  
رطبة لليلة ، ابتسامته التي تكشف عن أنيابه هي علامة سعادته  
وامتنانه ، ابتسامة تقنع بالحياء صفرتها ، ولكنه في الوقت ذاته  
منته أشد الانتباه لتسجيل ما يسميه هو بالتيارات التحتانية ، التي  
يزعم أننا نحاول إخفاءها لادعنه وحده ، بل عن بعضنا بعضاً ،  
وكثير من المجتمعين يحسون بشيء من المشقة الغامضة حينها يجدون  
هنا الطارق الحديد الغريب عنهم يضغط على يدهم وهو يودعهم  
ضغط الخمين ، ويحارون في تفسير معنى حركته ، إنه يريد أن يقول  
لهم صرا : « لست مغفلاً . أنا فهمت كل حاجة » . إنه من أشد  
الناس خرورا بذكائه وحدته بصيرته ولو أن قاموسه مشوش لم يجيء فيه  
شرح واحد أمام كلمة اسمه ، وقد سمعته مرة يقول إنه قفش رسالة  
خفية من سيده في شلة الأصدقاء حين قالت في عرض ثرثرتها  
إنها ستذهب هذا اليوم لخياطتها لسابع مرة تستعجلها لإنجاز ثوبها الحديد.  
قلت له : وأين هذه الرسالة الخفية يا بطل ؟ قال : إنها تضرب  
موعدا لمقابلتها عند هذه الخياطة في الساعة السابعة وإلا فما معنى

قولها لسابع مرة ؟ هل عدتها على أصابعها ؟

قلت له وأنا متعجب إذ كنت حاضرا هذه الجلسة ولم أتنبه لشيء من هذا . وإلى من وجهت رسالتها الخفية ؟ قال<sup>٢</sup> : هل أنت أعمى ؟ طبعاً لزميل زوجها . ألم تر يدها ترتعش وهي تقدم له فنجان الشاي ، وأشاج هو حينئذ عنها بصره لئلا تلمحه الريبة ؟ .

من أجل هذا الأفندي وأمثاله اعتادت بعض صحفنا ومجلاتنا مع الأسف أن تضع ثلاث نقط وراء بعض العبارات للإيحاء بمعنى خبيء ، أنت تقرأ السطور وحدها أما هو فيفتخر بأنه يقرأها خطفاً ليركز كل انتباهه على ما بين السطور ، فإنه يعلم حينئذ الكثير الذي يفوت عليك ، ولعل أنحس ذكاء عندي هو ذكاء من يقرأ ما بين السطور

ومن أعجيب طبع هذا الأفندي إنه شديد اليقظة لكل سلاح يستعمل للخير لا للشر ، بل لا يراه إلا أداة لإرهاب ، إنه لا يشهره بنفسه عن إيمان ، هو أعجز وأكذب وأجبن من هذا ، بل يقف متسترا وراء من يحمله ، يزق يده به في وجوه الناس ويستعديه عليهم ، فهو لا يحارب أبداً ولكنه ينتصر دائماً ولا يخطر أبداً عليه ولا حيلة لك فيه ، وهو يتخوفه بهللاً السلاح يقطع عليك كل حجة ، هو الذي إذا كان جندى مطافئء نكص عن تركيب الخرطوم وطلوع السلم والاقتراب من النار ، وتصدى لفعل شيء واحد ، هو تق الجرس فيغالي في دقه دقاً عنيفاً مجلجلاً يرج به قلوب الناس ، هذه هي فرصته ، وحين

يطغىء النار الآخرون وهو يتفرج عليهم فوق الرصيف يقول  
شامخاً بأنفه . كدنا نموت وسط اللهب ولكننا أطمأنا الحريق  
وأنقلنا السكان .

هذا الأفندى هو الذى ينماصل فى الهايفة بالمليم ثم يكتب  
للصحف داعياً للشفقة بالبائعين الجوالين ، هو الذى يسمح بالخوخ  
لرئيس التحرير فإذا رفض مقاله السخيف اتهمه بأنه لا يفتح  
صدره إلا للمتزافين ، هو الذى يؤمن أن كل أجر يدفع لغيره  
إنما يتضمن زيادة هى رشوة مستترة ، فإذا لم ينلها هو لطم  
الحدود على انتشار الرشوة والفساد فى بلدنا .

[ ] هناك شيء واحد يبطل سم أنيابه ، هو أن لا تحيد عن إضمار  
الخير وفعل الخير ، وإشاعة الخير بين الناس ، فإن هذا الأفندى هو  
كأنه نفسه تموت فى حوض الورد .

( د المساء : ١٩٦١/٨/٣١ : ص ٦ )

## بينى وبين صديق

**بقى** فى ذاكرتى حديث جرى منذ أيام بينى وبين صديق  
أحبه لطيبته ووسامته ، لشلة حساسيته ومزاجه الرومانسى ،  
وكنّا قد خرجنا من القهوة بعد سهرة مملة وبدأنا نسير على مهل -  
والليل قد انتصف - فى شوارع شالية الأمن أشباح مضیعة منهالكة  
كأنما تنتظر هى والقامة حملة المكانس ، لا يبدد الوحشة إلا رحيق  
من نسيم علب تعرفه ليالى القاهرة فى الصيف إذا بدأ الفجر يتنفس ،  
كان صديقى هو البادىء بالحديث على غير عادته ، قل بعد صمت  
كأنما يستيقظ من حلم :

ما قولك فى هذا الإحساس الغريب الذى يثماكنى إذا جاء  
فى عرض الحديث ذكر لتاريخ وفاة إنسان أعرفه ومشيت فى جنازته

فأتين — وكأنا فجأة — أن موته لم يمض عليه إلا قرابة شهر  
أو شهرين ، فإن قلبي حينئذ ينتفض ويهمس لي : حجيبة ؟  
كأن يخيل إلى أنه مات منذ سنين موعلة في القدم ، كيف انقلبت  
عندك هذه الفترة القصيرة إلى دهر سحيق ، هل عمرنا طويل  
إلى هذه الدرجة ؟ لا تبدده الأيام ؟ هذا الإحساس نفسه يملكني  
بصورة عكسية إذا كان الحديث عن الأحياء من حولنا بأن يقول لي  
مثلاً إنسان أعرفه وأخالطه إن قد مضت عليه سنة كاملة  
في مسكنه الحديد ، فإن قلبي حينئذ ينتفض ويهمس لي : حجيبة ..  
كنت أنخيل أنه سكن منذ مدة لا تزيد عن قرابة شهر أو شهرين  
كيف انقلبت عندك هذه الفترة الطويلة إلى شيء يشبه لمح البصر ؟  
هل العمر قصير إلى هذه الدرجة ، تنبيه الأيام نهياً ؟

فأنت ترى أن إحساسى بالزمن يختلف ، الزمن هو واحد ،  
ولكنه عندى بالنسبة للموتى حركة قطار اكسبريس يتعد عني ،  
وبالنسبة للأحياء حولي ، بل وبالنسبة لحياتي أنا أيضاً — حركة  
من يدور حول نفسه في مكانه ولا يتقدم داخل طائرة مسدلة الستائر  
منطلقة في الجو ، هل كل حال فإن هذا الإحساس يتمثل لي دائماً  
في شكل بقعة خفيفة — كأنها نور شديد يومض فجأة على وجه نائم —  
تورثني شيئاً من الدهشة بل — وأعترف أيضاً — شيئاً من الحسرة  
على النفس والخوف . فما معنى هذا الإحساس ؟ وما سبب الفرق  
بين صورتيه ؟

— المسألة بسيطة : نحن لا نتعامل مع الموتى ، لهذا لانحس بالزمن بالنسبة لهم ، ولكن دعنى أفكر قليلا . . . لأنك لخمى ونخلعت على حيرتك : أظن أن إحساسك بمضى مع الموت إلى الوراء بسرعة راجع إلى سبيين :

الأول : الموت عدم ، والعدم صفر ، هو شىء خاص من الزمن ولا يقاس به ، هو باب فى نهاية شىء طويل أو قصير يؤى إلى هوة ما لها من قرار ، ليست المسألة إلى أى عمق بلغ من وقع فيها بل هى وقع أم لم يقع .

والسبب الثانى : هو أننا وإن كنا نؤمن بعقلنا أن حياتنا تنتهى حتما بالموت لا نصدق فى قرارة قلبنا أننا فيما بعد سنموت اليوم أو غدا . . . فيما بعد . . . أمامنا وقت . . . أمامنا وقت . . . فغريزة البقاء تجعل من فكرة الموت عملة نرفض ، نحن الأحياء ، تداولها بدعوى أنها مزيفة ، وما هى مزيفة .

هذا المنطق هو سبب دفعك الأموات بعيدا بعيدا للوراء حتى يغيبوا هم وفكرة الموت عن ذهنك ، وهذا نوع من التململ ، الذى تأتى بعده اليقظة لزيفه عنيفة تزلزل القلب .

— وما قولك عن إحساسى بالزمن بالنسبة للأحياء ؟

— أظن أن السبب راجع إلى رتبة الحياة عند أغلب الناس وأنت واحد منهم ، فإذا كانت الحياة رتيبة ، يضى فيها اليوم مثل سابقه ، ومثل لاحقه فكيف يمكن أن تقيس به الزمن ؟ فالحسرة



على نفسك التي تحس بها حين تفتيه أن سنة قد مرت عليك مر شهر  
أو شهرين إنما مردها هو ضيقك وقبرمك بهله الرتبة ، وبأن  
حباتك فارغة ، فلو كانت حباتك غنية ملائ بالحوادث ، غذاؤك  
العقلي والروحي متجدد متجدد متنوع ، لمسا اقرسك هذا الشهور  
الذي تحكى لى عنه والذي فيه تفسر قولهم : «سرقنى السكين» ..  
ألا تظن أن الرتبة هي أيضاً قانون الكون ؟ إنه منذ خلق  
يسير على وتيرة واحدة ، . فخلية النحل نجدها اليوم بينما هي  
صورة حربية لأول خلية سكنت الأرض ، شكلها وكل ما يحدث  
بداخلها مرسوم طبقاً لقانون حليدي لا يتغير ، وحتى لو قلنا  
إن الأجرام ليست ثابتة بل منطانة فلان انطلاقها أيضاً يجرى طبقاً  
لقانون ثابت ، فهي حتى في انطلاقها تسير في حركة رتيبة .

— لا أدري ، لو صح هذا لقلت لك إذن إن أكبر فضل  
لكبار الفنانين وكبار العلماء المخترعين والمكتشفين يتمثل أول  
ما يتمثل في تقديمهم للإنسان أسباب التحرر من هذه الرتبة أو على  
الأقل للتخفف منها ، فإن كل روائع الفن ، وعجائب المخترعات  
والمكتشفات إنما هي نقلة عنيفة وحركة متجددة تقلب الأوضاع  
القديمية ، وإذا كان الفن والعلم يضربان دائماً في طريق مجهول ،  
عند كل لفظة منه مفاجأة وعالم جديد فلا خوف عليهما أن يقعا هما  
أيضاً في الرتبة ، فهما ناجيان منها أبدا .

— وهل تعتقد أن إحساسى هذا مطلق لا قيود له ؟  
— نحيل إلى أن له قيوداً ، فشرطه فيما أحسب أن لا يكون

لهؤلاء الموتى أو لهؤلاء الأحياء قدرة على بث شحنة كهربائية قوية في قلبك بسبب مصالحة أو عاطفة . انظر مثلاً هذه الأمّ الشكلى التى تذكر لى آخر عمرها باليوم والدقيقة لحظة وفاة وليدها العزيز ، الزمن عندها صادق لا يخادعها ، هذا نوع من الأناثية ، والأناثية وحدها هى التى تصحيح الشعور بمرور الزمن ، أتريد مثلاً يوضح لك ما أقول ؟

أنت فى حفلة كبيرة يزدهم فيها الناس بعضهم فوق بعض ، الحديث غمضة متشابكة كأنها بحر نخضم ، لا تلتقط أذنك منه شيئاً لأن شيئاً منه لا يهمك ، يكفيلك أن تقوى على الاستماع لحديث جارك عن يمين أو لحديث جارتك عن يسار ، ثم إذا بإنسان فى ركن قصى من الحجرة الفسيحة يلفظ فى نخضم الأحاديث المتشابكة اسمك وسط تلامه ، ولو بسرعة كبيرة ، فإن أذنك تطرطق فوراً وتنبيه وتلقظ هذا الاسم الحبيب ومطه من وسط الضجّة وبالرغم من غمائه وضياعه بيّنها .

— وهل تحس أنت أحياناً بمثل إحساسى ؟  
— أظن أننى بدأت أتنبه إليه حين تقدّم بى العمر ، فالشيخوخة هى أم الرتابة وما سحر الشباب إلا فى قدرته فى التحرر منها ، ولكن يا أنحى لماذا لا ترتاح إلا إذا استيقنت أن كل ما تحس به أيضاً إنسان غيرك ؟

— لأنى أخاف من الانفراد . لأنه يشتهه والشذوذ .

( « النساء » ، ١١/٩/١٩٦١ ، ص ٦ )

## خَرَجَ وَلَمْ يَعِدْ

حين تقع عيني عرضاً وأنا أقلب الصحيفة على خبر وصورة تحت عنوان «خرج ولم يعد» أصبح كهله المرأة التي تصادف في الطريق زحاما لأناس ومصمصات حول صريع تحت عجلات الترام ، لأنها ممزقة بين شهوتها في أن تزج بنفسها لتلمح الجثة ولو مستورة تحت غطاء من ورق الصحف ، وبين اتقائها للجزع من بشاعة المشهد الذي سيطلعن قلبها كالخنجر ، فنظرتها تثب خطوة إلى الأمام وقدمها تراجع خطوة إلى الوراء . سؤالها المباشر حوله عن علامة تطمئنتها أن القتل ليس من أهلها وإن كانت واثقة أن أقدامهم لا تدب عادة في هذا الطريق ولكن من يعلم .

وهكذا أنا أقرأ صحيفة الوفيات دون نزاع في نفسي ، فأخبارها أحكام مترقبة قاطعة ، قد تورثني الحزن محتلطا بالاستسلام مرة ،

بالعجب والدهشة مرة ، هي لا تقبل الجدل ولا تثير سؤالاً رغم  
أن الموت مرجح هول :

أما عنوان « خرج ولم يعد » فيورثني رهبة غامضة تتخفى وراء  
قناع ناطق بالأسى ، يحولني من نور إلى عتمة ، يصدمني برمة مأساة  
تثير في نفسي أسئلة كثيرة مقلقة أضيق بها ، بل يرتد إلى بوضوح  
مذهل بعض أمسيات طفولتي فأجد في تربتها بذرة دفينة تعال هذه  
التهاويل الشاذة التي أورق بها طبعي .

أويت إلى البيت بعد الغروب طائعا أو ميكرها ، دقت ساعتنا  
الشرعية عند العشاء آخر أذان ، صوته أشد جليجلة من أذان النهار ،  
وأخف من أذان الفجر ، وإن قاربه قليلا في الإيحاء بنخشوع - زين  
للبدن ، انقطع مرور عجالات الدبش ، وعربات الكارو والخطور ،  
تضاءلت الأقدام في الطريق ، بائع الفجل والكرات جاء ومضى ،  
الليل ينجم على الكون ، صرير الترام عند حوطة مسجد الرفاعي تصل  
لأذني وهي بعيدة كأنها فوق السطوح ، فيزداد إحساسى بانطباق  
الصمت على حين ، بدأت أحضان أمهاتنا وأجسادنا تربي هذا المدفئ  
الجيميل الملي يكحل عيوننا بعسل النوم .

وفجأة يأتي من بعيد صوت رجل أصبحنا نعرفه لأنه مخترق ،  
« يا أولاد الحلال » . ثم لانتبين بقية كلامه ، نقوم إلى النوافذ نفتحها  
في لطفة وقطل رحوس الكبار والصغار وشيئا فشيئا يقبل فنسمع النداء  
نحتنا « يا أولاد الحلال ، ولد نايه من النهارده العصر ، الأجر والثواب  
على الله يا عدوى !

صوت الرجل ، رغم غناؤه ، غير مذبوح لأن يده ليست  
في النار ، أما الصوت المذبوح رغم خفوته فينبعث من قم  
امرأة تتهالك وراءه على شيش زخافي ، لا تحسن ستر جسمها  
بملائتها ، لو صب للذوخة تمثال لكان هي ، تردد وراءه بأنين « يا  
أولاد الحلال » ثم لا تزيد ، إنها تترك إعلان توهان ابنها للرجل ،  
تعاف أن ينطق به لسانها ، عرفت من أنيها لأول مرة في حياتي معنى  
الفجعية وكيف تهصر القاب .

نحن في الفراش ، في البيت ، في أمان ، مع أهلنا ، نسأل في  
سرنا برهة وأمي : أين ذهب هذا الصبي المسكين ؟ كيف سيقضي  
ليلة بغير غطاء ؟ أهو الآن جائع ؟ وفي قاع أذهائنا صور مخيفة من  
الحواديت : عفاريت وغيلان ، ومارد أعور ، والست المزيرة ،  
وام رجل مسلوخة ، وحمار الزلياني - وهو حمار أبيض جميل  
يضادفك بالليل فإذا جهلته أو علمته ونسيت وتحامقت وخذعتك  
رقتة وبراءته . علا بك ثم علا ، هذا هو مصعد أيام زمان ! « حتى  
بلغ السماء ثم ألقاك محطما على الأرض .

وتحلمنا أمي قبل أن ننام ألا نمشي وراء الزفة لأبعد من نهاية شارعنا ،  
فهذا الصبي التائه سار ولا شك وراء زفة ، مسحورا بالموسيقى والطبل  
والرقص وعربة العروسة وعربة المطبخ ، وفجأة تلفت حوله فوجد  
الشمس قد غابت وأنه ضل الطريق .

أصبح هذا النداء مألوفا عندنا لأنه يتكرر ، ولكن هيئات  
لتكراره أن يسلبه وقعه الأليم كل مرة .

ياعلوى، شفاعة لولى ترك الكرامات الكبار لغيره من الأولياء،  
واكتفى هو بالتخصص فى العثور على الضائعين. من إنسان وحيوان،  
لا شأن له بالجماد، تركه ليسترزق من البحث عنه فاتح المنبل وقارئ  
الفنجان ومحضر المفاريت .

كنت أنصوره - رغم الحزن الذى يثيره اسمه - رجلا بشوشا  
متواضعا سمحا ؛ يجلس على منجادة ويخفى وراءه صبيا صغيرا خضره  
وأسنده جواره للولى واستنشاقه من أردائه رائحة الماورد والمسلك  
والكافور، تهبه أمه ضارعة متلهفة فيظل يعاتبها وينقلها بين الأمل  
والياس ؛ حتى إذا أحس أنها تأدبت وثابت عن إهمالها لولدها والشك فى  
ولايته ابتسم فى وجهها وأخرج لها الصبي من وراء ظهره ؛ إنه لولى  
يحب المعايبة .

ولما كبرت بحثت أنا بدورى عن هذا الولى الضائع على الذى يبحث  
عن الضائعين فوجدته فى الاسكندرية ، فى حى الجمرك ، يسكن  
زاوية متواضعة من حجرة واحدة مربعة صغيرة مفتوحة على  
الطريق ، فكسر خيالى أننى لم أجد وراء خريجه المترب صبيا  
مختبئا ، فما يجلس على بابه الا خادم مهلهم لومرت به أجمل زفة  
للمنحها طرفه .

الآن أروض نفسى وأقرأ خبر «خرج ولم يعد» ، وأطيل  
تأمل صورة الضائع . صبي فاغر القم منطمس الملامح من أثر  
ذهول المحدث لأول مرة فى آلة التصوير ، هل عجز هذا الصبي  
عن أن يبين عن اسم أمه أو أبيه أو عنوانه ؛ أم هم أشد منه

ضياحا في الحياة ؟ ألم يجد واحدا - واحدا فقط - من أبناء الحلال  
يأخذه من يده ويرده إلى أهله . كيف ينتهي حله ، استراه  
عما قريب يقود شحاذا أعمى في القطارات والآتوبيسات ؟  
من يدري ؟ لعله سيكون هو هذا الصبي السائل الذي يمد لك يده  
كالخطاف قد بترت أصابعه الوسطى لا . . لا . . لأنني أرفض  
أن أصدق أن بيننا رجل مثل « زبطة » الذي وصفه نجيب  
محفوظ في « زقاق المدق » وجعل مهنته تشويه الفقراء ليرتزقوا من  
عاهاتهم ، أجره يرتفع كلما زادت بشاعة التشويه . استراه وسط كوم  
من اللحم البشري على رصيف تتعثر به أقدام المارة بالليل في عز الشتاء ؟  
وقد يكون الضائع شيخا متجهما نحس من صورته أن  
الأيام قد دعكته وأرهقته . هل أصيب بفقدان الذاكرة ؟ هل  
ترك بلده ألقى عن عاتقه مسئوليات لا قبل له بها ؟ استراه  
في طنطا - مثلا - عند موقف الآتوبيسات تحت الكوبري رث  
الملبس ، القمل معشش في رأسه وصارح على بلده ، يمتنى يبطء  
المشلول منحنيا ، يسألك بنظره لا بكلامه ؟ ! .

وقد تكون الصورة لفتاة عليها رواء الشباب رغم ثوبها الرخيص  
هي معجبانية تبسم بعفرفة . . استراها هي أيضا ذات يوم جثة  
ممزقة في قميص من حرير تحت ثوب أنيق ؟ أم استراها مسجونة في  
بيت للبغاء السرى تملكه امرأة لا تعرف الرحمة ولا كلمة « استوب »  
بزيادة كده ؟ هل استراها متجهة في قضية بأنها متزوجة من أربعة  
رجال ؟ من هو الفتي المأذون الذي لحس عقلها بكلام معسول من

الحب والفرام والفسحة والسينا وزين لها الهروب عن بيتها ؟ ،  
مستفوت السكره وتأتى الفكرة ، يقال إن للقواد حين يوقعون بامرأة  
شريفة لذة تفوق اللذة الجنسية ذاتها ،

أم نرى جميع البالغين منهم قد أصيبوا فجأة بهذا المرض الحديث  
العجيب . . الزهق من رتابة الحياة وتشابه الأيام ، من ورائه إلحاح  
عجيب ينفذ اليدين من كل شيء . والحرب دون أن يحملوا شيئاً  
إلا الثوب الذى عليهم . الانطلاق من كل أمر : العائلة والزوج  
والولد والعمل ، ثم الحرب إلى أرض الله الواسعة لا يهتم الطريق  
ولا أين تقود القدم ، الهيام على الوجه كأنما تدفعهم في ظهورهم  
رأس سونكى ، في قلوبهم شهوة دفينه حقيقة بأن ينفردوا ولو مرة  
بأنفسهم وجها لوجه في الكون الواسع السحيق . هل يجدون من  
اللذة الكبرى أن يعيشوا مجهولين لا يعرفهم أحد ؟ هل تختفى حيثلده  
كل عيوبهم وتتجلى كل فضائلهم ؟ .. لهم أن يبدلوا أسماعهم كما  
يشاعون ويضحكون في سرهم لأوهام الناس عنهم ! أهذه الشهوة  
موروثة عن الرجل البدائي الذى كان يهيم بلبس قناع على وجهه ؟ أن  
يكون إنسانا مزدوجا لا واحد ، أم أنها هى الصورة الوحيدة التى  
يطبقونها للانتحار ؟

الانتحار ؟ نعم ! فإن أخباره وخرج ولم يعد ، تجعلنى كما أحس  
بأن الموت هوة مسحية تشفط الناس تجعلنى كذلك أحس بأن الحياة  
هى الأخرى هوة مسحية تشفط الناس ، السقوط واحد والضياع



هو هو . ، يجعلنى أحس كأننا نمشى على صراط دقيق بين الهوتين  
وأنا رغم ما نعيم به من أمان وانتظام عيش ومستقبل مضمون بقدر  
علم الإنسان نعيش مع ذلك فى رهبة دفينه مستمرة من أن تزل القدم  
يسارا فتقع فى هوة الموت أو تزل يمينا فتقع فى هوة الحياة ويبتلعنا  
نخضها ذلك أن مرض الرغبة فى الهروب قلما يسلم منه إنسان فى العصر  
الحديث وإن اختلفت حلاته .

ومرد هنا الإحساس عندى أننى أعيش فى بلد يفتق بالسكان  
ويعم فيه الفقر ، الصلة بين الفرد والبيت مبهمة غير وثيقة . العنوان  
الثابت متعذر انظر إلى أنفاس التراحيل ، معنى التشرد يساوى — إن  
لم يفق — معنى الاستقرار ، الكتلة البشرية تتحول من مجموعة أفراد  
متميزين بشخصياتهم وملازمهم ونمط حياتهم إلى عجيبة سائجة تزول فيها  
الشخصيات والملامح ونمط الحياة ، فلا عجب إذا لمسها قدم أن  
يفرغ فيها صاحبها لأذنيه ، إنها وايدة قانون اقتصادى ، إذا  
زاد العرض على الطلب هبطت الأسعار . كذلك أرى رأى العين —  
إذا تقاعسنا عن تطبيق الاشتراكية لمعالجة الفقر والازدحام —  
هبوط سعر الفرد باستمرار حتى يصبح من سقط المتاع ، العشرة  
كالمائة والمائة كالألف .

من حسن الحظ — أو بالأصح من سوء الحظ — أنى أستطيع  
أن أقدم لك دايلا استقيته أخيرا من الصحف . روت أن امرأة  
حاقرا اشتهت أن يكون لها ولد فذهبت إلى مستشفى أبى الريش وهناك

اشترت من امرأة على الرصيف متخصصة في بيع الأطفال ولديها عدد لا بأس به منهم ، بنتا صغيرة ، فقرحت بها وقبلتها وحملتها بين ذراعيها ، وعادت بها إلى الدار بعد أن دفعت ثمناً لا أعلم كم هو ، هل اشترتها بالوزن ؟ أم بحسب السن بعد الكشف على الأسنان أم بمقدار الوسامة وجهال الشعر ؟

فلما استقرت في دارها لحظت أن بطن الفتاة لا ينقطع عن الإسهال ، وكل شيء يدخل في فمها تتقيؤه ، وأن صراخها لا ينقطع : حبلتها بالوصفات البلدية فلم تتحسن . . فلما أدركت أنها ستحتاج إلى طبيب ودواء من صيدلية أسرعت بها إلى البائعة وقالت لها : ابدليها بأخرى تكون أشد عافية وصحة ، وماذا يهلك فعندك منها كثيرات .

كأنما اشترت حذاء قديماً فوجدته يعقر قدمها فأعادته للبائع للبلد عليه ينمرة أخرى ، يخيل إلى أن بائعة الأطفال متعلق فوق رأسها لافتة تقول : ممنوع ترجيع البضاعة بعد تزولها من على الرصيف . ! .

وهذا الخبر أقلقني طويلاً لسبب آخر ، لقد ليشت أياها عديداً وأنا حائر في فهم معنى عاطفة الأمومة في قلب هذه المشتري . كيف طغى عليها فاستجابت له فاستحقت منا ونحن نفهمها الحب والعطف والتقدير ، فلما نالت كثرها الثمين من الله سبحانه على يد البائعة أهله بصورة لا أحد لبشاعتها وقسوتها واستحقت منا

الاحتقار والاشمئزاز واللعنة وإقصاءنا لها عن نطق البشر .  
كنت من قبل إذا أردت وصف جمال العاطفة أقول أنها وصلت إلى  
حد الغريزة الحيوانية ، فوجدت مصداق كلامي عند هذه المرأة ،  
نطقت الأمومة في قلبها بدمامة مقرزة لأنها بقيت غريزة بني آدم  
يعيش في مجتمع لا ترقى إلى مقام الغريزة الحيوانية ، فالدجاجة  
لا ترفض تربية كتكوت غريب يدس عليها ولو كان مريضاً  
لا ينقطع قيؤه وإسهاله وصراخه أف تكون هذه المرأة أحط من  
الحيوان ؟ ! .

( « النساء » : ١٩٦٢/١/٢٩ : ص ٨ )

## سبعة في قارب

لا أذكر من الذى اقترح علينا عند انفضاض العجنة بعد  
ثلاثة مرحة طويلة في حجرة دميعة معتمة أن نروح عن أنفسنا  
بتزعة فوق النيل ، وكنا ستة أشتاتنا ، جلسنا في قارب يملكه  
شيخ هرم ، توسط بنا النهر العظيم والشمس مائلة للغروب وراء  
نخل رشيق ، السماء بلون الورد ، تراجعت ضجة المدينة  
الصاخبة ، للماء وهو ياطم القارب لغط رتيب ولكن غير ممل ،  
الماء طاهر ، الجمال رضى أخيرا أن يمحيط اللثام عن وجهه ويتسم  
لنا ، نحيل إلى أننا جميعاً قد نسينا الدنيا ونفوسنا ، متاعها  
وشروها - وساد بيننا الصمت . ثم إذا بي أرى من هو أقربنا  
إلى الدفة - وهو رجل خائر العينين مطبق الشدقين - يميل جلده  
إلى حافة القارب ويسند رأسه على كفين مضمومين تحتها ويقول :

— هذه هي اللحظة التي أشعر فيها بفيض دافق من الجلال والحبور يلفني ويغمر قلبي ، كل شيء في الكون قد اعتدل وانتظم بعد اعوجاج واضطراب ، لا فرق في ذلك بين الأجرام السماوية وأحشائي الداخلية ونوازع ضميري ، يجمعها على الصفاء والخير نسق واحد كأنما كل شر ودمامة وقبح وقلادة قد مسح عن الوجود فجأة . في هذه اللحظة تنهار جبال شامخة من التفاصيل التي تسد الرؤية ، فلا يبقى أمام ناظري إلا الأصول التفاصيل هي اجتماع تقيضين : ميوعة الفوضى وصلابة الجمود سر وجودها مستمد من وهم المقاييس التي تختارها نحن للوزن والحجم ، فلو لا هذه المقاييس لما بقي لها معنى ، استقلال كل تفصيل بنفسه راجع لا إلى ميزة فيه بل إلى مجامعته ومخالفته بلحظه ، هيهات أن يسوى على سطح واحد كوم من الأشواك ، وحين تنهار جبال التفاصيل تتداعى لها جوانب كثيرة من نفسي ولكني لا أحس أنني خسرت شيئاً ، بل أحس أن كابوساً قد انزاح عني .

في هذه اللحظة أنا طفل أكركر حتى تنهر أنفاسي ، تضحك في قلبي الفرحة الأولى للكون حين انفلت من العدم ، فرحة كل رسام سابق وقادم حين تحقق لوحته أحلامه ، فرحة كل شاعر كلما نطق الفن بلسانه ، فالجلال هو قرار السعادة وجماعها . إن من يملك الجلال هو في غير حاجة لشيء آخر ، إنه يجد له طعاماً حراً في نفسه ،

كل المواطنين إلى جانبه أقمار تستمد ضوءها من شمسها ، الليل حين  
ينيب هو ولو طلعت كافة هذه الأقمار .

هـباً أقربنا إلى مقدمة القارب واقفاً ، هو رجل ألقى الأنف ،  
جسمه كالوتر المشدود ، لو نقرت عليه لرنَّ وانبعثت منه شرارة ،  
ضاعت قلماه ذرعاً بانحياصهما في حيز ضيق وهم أن يمشى على حافة  
القارب ، وقال وهو غير ملتفت إلينا ووجهه مرفوع إلى السماء .

— أما أنا فأحسُّ كأنى قنينة في مدبح ، وقع الجمال على هو  
وقع الزناد التي يطلقها من الأسر لـ نيرة . أعطاني الحرية ،  
ثم سألتني من أنت وماذا تشعر وبأى شيء تهيم ، أما من قبل  
فلا أعرف كيف أجيبك ، بل ما يبدو أن أجيبك حتى  
ولم أهرفت ، في تلك اللحظة أصبح كأنى انفلت كالنصل العريان  
من آلاف القيود والأغلال الحقيبة والسفاسف والأباطيل ، من  
جسف يسترقُّ روحى ، وعسف يسترقُّ جسدى ، هى التى تخلق  
آفاقى وتشل حركتى وتربطنى إلى أصنام حيونها من الزبرجد  
والياقوت وقلوبها من حجر صلد وثغورها باسمة . . . ليس أقبح  
من ابتسامة الصنم الذى تراق أمامه دماء اللبائح وتنسكب دموع  
الأسلاب ، إن هذا الأنا الذى أعيش فى أغلاله ليس أنا ، محال  
أن يكون أنا ، بل هو إنسان آخر يشبهنى تمام الشبه ، إنه طعين  
قتنرئ جراحه ، وتتفحش كل فضائله ، ما أهون الانطلاق من قيود  
المجتمع وأنظمتة ، ليس هنا هو الانطلاق الذى أشعر به ، بل

هو الانطلاق من أسر الوجود العابر ، من القدر الساخر ، من القابلة التي تقطع الحبل السرى ، من الحاضنة التي يكتم صدرها الأنفاس ، من المعلم الذى لا يرشدنا إلا بسبائته ، الناس تستيقظ من عز النوم في بهمة الليل على صوات عواء له ترديد الثكلى المفجوعة بوحيدها . ما لهم يحرون إلى النوافذ ليروا أى كلب ينبج . لو أصاحوا السمع لعرفوا أنه مذبح من قلوبهم ، إنه عواء حرمان الإنسان في هذا الوجود من الحرية وتخبطة في عذاب الامتحان في قبضة الأسر . إنه كنور الساقية ، غائص في الطين ، على عينيه حجاب ، لا يعرف هدفه ، يدور في حلقة مفرغة . إحساسى بالجمال هو الذى ينشأ من الطين ويمنحني أجنحة ترفع الجبال ، هو الذى يفك الحجاب عن عيني ويكسر حلقتي المفرغة .. يفعل كل هذا لأنه يهين الشعور بالحرية ، لأننى أحلم كثيراً بأننى أطير في الهواء .

وقال الجالس أمامى وهو رجل لا يتقطع سعاله من الربو مخاطباً عاشق الحرية :

... تركت لك السماء يا صاحبي ، أما أنا فإحساسى بالجمال يزيدنى التصاقاً بالأرض والناس ، وهذا من نعم الله على ، فلإن كيانى في هذه الدنيا هو كل نصيبى ، لا أملك شيئاً سواه ، إنه صندوق مملوء بالأسرار والقوى والمتع ، وهى منه وله ، وهو غنى بها عن غيرها . ومع ذلك فإننا نستعين بها كلما تركنا ظلام العجز والشكوك والخوف والخدر تغلف قلوبنا على غفلة منا ، فلا نطلق القوة لأقصى

نطاقها و المتعة إلى آخر حدودها ، إننا نصرّ فيها تصريح الشحيح  
الضنين بماله ، بل هي على خلاف المال تفسد بالكثر ، الحياة كأس  
ممنوحة لنا حلّالا ولكننا نعجز عن شربها لانهاية ، خوفاً من الثمالة —  
ولاثمالة هناك ، خوفاً من أن نفرغ فلا نجد غيرها . . مع أن الساق  
كريم رهن الإشارة ، نحن نفرض الحرمان على أنفسنا تطوعاً منا  
دون أن يجبرنا عليه أحد ، فهو حرمان لا ثواب له . فوق الإحساس  
بالجمال علىّ هو تأجيج عواطف كلها لتبلغ من ائتمعة أقصى غايتها ، إنني  
حينئذ لا أَرْضَى بالحب الوجل الكسيح الراضى بالقليل ، بل أريده  
عشقا عاصفا وولها متقدماً ، هو وليد انعطاف كامل غير هيّاب من  
القلب والروح والخيال معا ، فلا يبقى في جسدي كاه ذرة من  
مادة أو كهرباء إلا شاركت في العب من العشق حتى ترتوى ،  
وترداد أيضا عند إحسامي بالجمال قدرتي على الحنو على الرأفة ، على فهم  
الفكاهة ، على الابتسام . فإذا بلغت هذه الغاية تحقّق معنى وجودي  
كإنسان في هذه الدنيا وشعرت بسعادة ليس فوقها سعادة .

وقال جباري وهو رجل ممعود (١) فحيل على البهية ، أرنبة  
أنفه تعمل عمل الإبرة التي تعكس اهتزازات روحه :  
— يا لحسن طالعكم . . أما أنا فوقع الإحساس بالجمال علىّ  
هو حزن ينسلل إلى قلبي ويحتل كل حجراته ، لا يقبل معه شريكاً ،  
إنه يتخذ مسكناً وضريحاً ، لا أنكر أنه حزن ودبع رقيق غير  
شرس ولا موجه ، ومع ذلك فله قدرة على السريان مع دمي

(١) معد فلان : فسدت معدته فلم تستعِى الطعام فهو ممعود .



في عروقي كلها ، يكسو الوجه ويطلّ من العينين وتنبض به اليد .  
لا أدري لماذا أنا كذلك ، هكذا خلقت ولا أملك أن أشنى من طبعي ،  
يخيل لي أنني لو كنت شريحة من الزجاج الحساس للفوتوغرافيا  
لكانت من الرقة بحث تنشرح ، بل تتحطم لحظة ينعكس عليها ظل  
شيء جميل ، لأنها غير قادرة على استيعابه ، إنني في أحيان كثيرة  
إذا رأيت الجمال أنعمضت عيني . لا أعرف شيئاً مثل الجمال يجمع  
بين التحدي والحداع ، إنه يوهمنا إنه في متناول يدينا ، ما علينا إلا أن  
نمدها حتى تنبض عليه فإذا فعلنا تراجع قليلاً وهرب منا ، إننا  
نظل نجري وراءه فلا نبلغه . إن سبب هذا الحزن هو أيضاً  
اضطرابنا - ونحن بنعمة الله غير كافرين - أن نجار له بشكوى  
قد تختلط بالتجديف . . لماذا حين خلقت الجمال وأسكنته دنيانا  
خلقتنا عاجزين عن تملكه ؟ . . وتمضي حياتنا في التحسر على  
هروبه من يدنا . . ألا يكون ثمن تملك هذا الجمال إلا الجنون ؟ .

ودلت نظرة آخرنا وهو رجل قرم أعمش ذو حياء منطو على  
نفسه على أنه يجد أكبر لذة في تأمل الوجوه والانتباه للاختلاف  
الطباع والاقتراب بالحدس من فهم حال هذا الاختلاف ، ولو لا  
إحساسه بالجمال في تلك اللحظات لما ملك قدرته على تأمل أصحابه  
كما فعل بلذة كبيرة لأنه يعتقد أن ليس في العالم لذة أو سعادة تفوق لذة  
أو سعادة الفهم ، أن تنكشف المعميات ، أن تزاغ الحجب  
والأقنعة ، أن تتغلغل النظرة من السطح إلى الأعماق . إذا كان لانهم

أولاً فلا لثة لشيء من بعد ، أو هي لثة الحمقى والأدعياء  
والمخلوعين .

وقطع تأمل صاحبنا صوت الشيخ المهرم صاحب القارب وهو  
يقول لهم :

— انتهت الساعة المتفق عليها ، فهل تريدون ساعة أخرى  
أم نعود للشاطئ ؟ هذه هي المسألة !

( د المساء ، ١٩٦٢/٣/١٩ ، ص ٨ )





## هذا الجمنور

فى روما قبل الحرب ، فى كازينو الورود ، فى حديقة فيلا  
بورجيزى خارج بوابة بزسانا ، جلست ذات ليلة من ليالى الصيف  
بين جمع خليط من الناس أمام مسرح صغير يعرض عليهم وهم يحتسون  
المرطبات ويثرثرون ضروباً خفيفة من فنون الرقص والغناء والفكاهة  
والبهلوانية ، جمع أنيق الملبس ، خافت الصوت ، مهلب الإشارة  
يلتمسون النسيم واللهو والسعادة ولو من خرم ليرة :

وتوالت فقرات البرنامج ، لم يبخل الجميع عند نهاية كل فقرة  
بتصفيق هومرة حار ملح يعبر عن الإحجاب ويطلب التكرار ويناله ،  
وهومرة موجز فائر يدل على أحق رغبة لبراءة الدمة :

قلت لنفسي : ما أسهل الكرم على السعداء إنهم جاءوا للتبشير

بالمرح لا بالغم . لا يعبأون أن تحيات وانجتماعات الفنانين لهم متساوية عند  
التصفيق الحار والتصفيق الفاتر ، بل لكل الجمع قد لحظ بشيء من  
السرور والفكاهة أن من ذل التصفيق الفاتر كان أشد مبالغة في شكرهم  
من نال تصفيقهم الحار لأبأس . . المهم أن يرتشف أبناء الليلة كلهم  
من يد أمهم أكواباً مترعة بالخمر والهناء . .

والظاهر أن الجمع كان قد بلغ في أحضان النسيان ذروة المرح ،  
ونحلى المجال للديب الطفولة تغزوه شيئاً فشيئاً حتى تماكنت في غفلة  
منه ، قطع هدوءهم طعنات من ضجة لا تزال مهذبة ، شق الفضاء  
رنين بعض الضحكات ، فبدأت الجلسة في المقاعد اطمنائها ، وزاد  
تلفت الناس بعضهم لبعض ، حتى الجرسونات بعد الاحترام رفعوا  
الكلفة بينهم وبين الزبائن ، يحومون خلال الموائد والآكواب ثابتة  
فوق صوان مائلة متأرجحة على قاعدة ضئيلة من أصابع يد واحد  
مرفوعة فوق الرؤوس ، أصبح مشيهم تقليداً من يعبد للراقصين  
والبهلوانات :

### ● الزمن يسرقه

وشاء سوء الحظ — وليالي السعادة لا تمحو من ساعة نحس — أن  
تكون الفقرة التالية من نصيب رجل متعوس ، لو قدم فقرته في

أول المسيرة لم مرور الكرام ولكن شاء قدره الأسود أن تؤخر إلى  
أن بلغ المرح ذروته :

ظهر لنا على المسرح رجل شيخ في بدلة مفصلة من رقعة الشطرنج.  
يلبر بين يديه قبعة صلبة مستديرة كأنه أخرجها من تحت سرير ،  
حيا الجمهور تحية نبيل لسيدة جميلة جالسة في صالون ، كان هو  
وحده الذي توجه للأوركسترا بإشارة رشيقة من كفه المبسوطة يلتمس  
منه أن يتفضل عليه ويبدأ بالعزف ، هذا هو شأن الرجل المهذب .  
لم يكده الأوركسترا يبدأ العزف حتى اتخذ الرجل وقفة مسرحية  
وفتح فم وانبعث من حبال حنجرته البهاقة صوت أجش حاد بأول  
مقطع من أغنية قديمة تندب فيها فتاة بلهجة إحدى المقاطعات خيانة  
حبيبها لها ، هي معروفة في إيطاليا بأنها أكثر الأغاني الشعبية قدرة  
على إسالة الدموع ، وكان للرجل شهرته في إنشاد هذه الأغاني الشعبية  
يجوب بها إيطاليا من الشمال للجنوب ، وله أسطوانات عديدة ، لم  
يشعر في رحلاته الطويلة أن الزمن يسرقه ، فلما عاد للعاصمة كان  
فعلا ماضياً لا مضارع له :

وقبل أن يفرغ الرجل من المقطع الأول من أغنيته انقلب الجمهور  
فجأة إلى وحش غريب لا يعرف قلبه الرحمة . اختفى الجمع المهذب  
واختفى معه كرمه ، كان لقاء الأغنية عنده أن ارتفعت ضحكات  
الاستهزاء والسخرية من كل جانب : من بينها أصوات تقلد مواء  
القطط . للجمع كله خلق واحد انبعث منه دوى كالرعد يريد أن

يخفق صوت الرجل ويفسد عليه فقرته ، لا فرق في الهجوم عليه بين رجل وامرأة ، وبين شاب وشيخ .

استبدت بالمكان كله فوضى تشيع مرحا هداما له نسب قريب بشيطة القرود ، الجالس ينظر إلى وجه زميله فحين يراه يشارك في هذا الهجوم بضحكه ومتافه ودق أقدامه على الأرض يزداد مرحة هو ضعفين . منظر الفنان يضحكه ومنظر زميله يضحكه ، وسرت العلوى بين الجميع وهم يرفعون بعضهم بعضاً درجة بعد درجة في سلم الهياج والفوضى والمرح والقسوة ، وجوها الجرسونات متميزة عن الجمع ارتسمت على شفاهم ابتسامة تجمع في وقت واحد بين الملق والرثاء ، الملق للجمهور ورثاء لضحكته ، فهو مثلهم أجرى يعول أسرة ورزقه يوم بيوم .

انقطع الرجل عن الغناء وظن الجمهور أنه قد انتصر فهدأت الضجة ونريشوا لكى يروا كيف ومتى تكون لحظة انصرافه وأعدوا له في أنفسهم أقبح تشييع . ولكن الرجل ظن أنه قد واثته هدنة ينبغي له انتهازا ليحاول اقناعهم مرة أخرى أن أغنيته شيء عظيم لم يلتفت للأوركسترا كمادته ، بل بلأ يغنى المقطع الأول من جديد ، فلهحق به الأوركسترا ليسعه .

انقلب مرح الجمهور إلى حنق ، إنه لا يجب عصيان أوامره ولا الأغبياء الذين لا يفهمون ، بدل الضحكات صدرت أوامره عديدة من كل جانب تصرخ للرجل « كفى كفى » . أخرج



اخرج ، . . فهم الرجل وأشار بيده إلى الجمهور مستأذنا أن يسمح له بكلمة ، فلم يثبها إلا بعد عناء ومفاوضة ، قال لنا بصوت متهلج :

— سادتي ! ماذا عليكم لو سمحتم لي أن أتم أغنيتي ، إنني أرزق من هذه المهنة وليس لي غيرها ، كونوا كرماء واتركوا ليلتي تعدى على خير .

لم يلبس الرجل أنه بهذه الكلمة قد انتحر ، إن كان يظن أن قد بقي في قلب الجمهور ذرة من الرحمة فقد أضاعتها هذه الكلمة ، ولم تكن قضيعها إلاها ، إذا كان يريد الاستجداء فليخلع بذلة الفنان ويقف أمام باب كنيسة وفي يده صندوق كرتون به نصف دسته من حلب الكهربت ، ضاق الجمهور به ذرعا ، هذا رجل ثقيل يحتم على صدره ، فلفظه لا بأصوات الاستهزاء والسخرية بل بههمة ، لا شيء ينطق مثلها بالتأفف والاحتقار .

### ● اننى فنان

ذكرى تلك الليلة البعيدة نبشها من أعماق نفسي استأخى أخيرا « إلى مجلة الفن » في البرنامج الثانى — جزاء الله خيرا —

امتحنى بحديث على لسان بولدينو الرسام الإيطالى الذى نال  
جائزة بينالى فى أمريكا منذ سنتين ، هو يشغل منذ ربع قرن  
منصب معلم الرسم فى مدرسة صغيرة بمدينة بولونيا ، لم يتحول  
عنها إلى اليوم رغم الشهرة الفائقة التى واثته بعد صبر قنوع ،  
لم يسع إلى ترقية ولم يتعارك من أجل درجة ، بل رفض أن  
يأبى نداء عشاقه للذهاب إلى العاصمة لتسطع عليه الأضواء  
ويتنقل بين الصالونات وتقرسه نساء المجتمع الراقى ويدلى بأحاديث  
وبرى صورته فى الصحف والتلفزيون .

إنه الأعزب العزوف آثر أن يبقى فى منصبه الصغير وفى داره  
المتواضعة وفى بلدته النائية ، يقفل الباب على نفسه وعلى شقيقات  
له من حوانس أيضا ، إنه يكره رسم الأشخاص وإنما همه الأوحاد  
أن يتأمل فى العزلة والسكون الشامل بعض الأشياء الجامدة التى  
تحيط به ، كالقنينات مثلا ، فإذا ألفها وألفته وسمها فبدت  
فى لوحته كفينوس خارجة من أعماق البحر تكشف لأول مرة  
أمرارا تشبه لها الصدور .

إنه لا يسعى قط أن يحشر نفسه بين الفلاسفة ويحاول أن  
يعطى لرموزه تعبيرا ميتافيزيقيا ، بل غرضه الوحيد أن ينطق بإماعة  
الشيء الجامد بحياته فى الكون وبمعان كامنة فى خلقة لا تكاد تفرق  
عن المعانى الانسانية . التأمل والفهم والتعبير فى دائرة ترسمها البساطة  
والتواضع والخشوع ، قيل له إنك تبيع لوحاتك بثمان بئس فيبيعهما  
المشترى سريعا بثمان باهظ ، أجاب : إننى فنان ، ولست

بتاجر واننى أرسم لنفسى لا لأحد ، وكل منعتى أن أجد  
اللوحة رضائى ؟

### ● ماذا جرى لك ؟

وتلا الحديث عن هذا الرسام حديث آخر عن شارلى شابلن ، كيف  
كان لا يستمد الفكاهة إلا من ينبوع نفسه وحدها وهو ممثل  
مغمور ، فلما اندلقت عليه الشهرة وأطبق الجمهور عليه باعجابه  
وأخله في أحضان المسكرة بدأ يفكر في استرضاء هذا الجمهور ويقدم  
له ما يظن أنه يرضيه سواء رضى به أم لا فإذا به يتلقى من رجل  
مجهول رسالة يقول له فيها :

— ماذا جرى لك ؟ إن فكاهتك الآن أصبحت مفتعلة ، بالغة  
مبتللة فعد إلى سابق عهدك .

قال شارلى إنه فهم الدرس وعاد إلى نفسه ونسى الجمهور ،  
فكتب لفنه البقاء يعد أن كان مهلدا بالانقياد ، ثم أضاف  
شارلى هذه الكلمة الغريبة :  
إن الجمهور يجب الاستعداد :

## ● الفنان والجمهور

ذكرياتي وهذه الأحاديث حملتني على تأمل العلاقة بين الفنان والجمهور ، لا شيء في الدنيا يعادل سعادة الفنان الصادق بفنه وحده مستقلا عن كل جزاء سواء ، ولكن لا جدال أن هذه السعادة بذرة فيها كل أسرار الشجرة وجمالها وأن الفنان لن يرى ورقها وأزهارها رأى العين إلا إذا أحس بتجاوب رومح بينه وبين جمهوره .

ما أقسى مأساة الفنان الذي يسرقه الزمن وتبور بضاعتها لتبدل أخواق الناس في جيل غير جيل ، الجمهور يصبح عدوا لا يرحم كما رأيت من ذكرياتي ، وينبش الأنكليب على أنفسنا بل نقرأ أنها مأساة مؤلمة أيضاً ألا يلقي الفنان تقديراً إلا بعد موته ، لأنه كان على خلاف الفنان الأول يسبق جيله .

ولكن مع الاعتراف بهذا التجاوب الروحي بين الفنان والجمهور وأنه حقيقة واقعة ، وأنه صلة فيها زكاة لا فقر ، أقول إنه لا نجاة للفنان إلا إذا احتفظ مع ذلك باستقلاله وثق عن الجمهور صفة الصمم الخفيف الذي يطفاف به ويعامل بحذر وتقدم له القرايين ، فإن

من شأن هذا المسلك أن يحل الرياء عند الفنان محل الصراحة ،  
والطقوس محل التقوى والتخشب المراسيمى بدل الرقص ، واللفظ  
الاجوف لأنه زنان محل النجوى والهمس .

وينبئ الفنان أيضاً عن الجمهور صفة الصديق الذى يعامل  
بمجدلة ورفع كلفة وأمل فى الصفح عند الخطأ ، « فإن من شأن  
هذا المسلك أن يتصف الفنان بالحماقة ويسهل عليه أن يهبط من  
الأحسن إلى الحسن ، ويطغى عنده الاستهتار شيئاً فثيثاً ويحل محل  
الإعزاز ، ولو فعل ذلك لا يلومن إلا نفسه إذا انقلب ود الجمهور  
إلى ملل وصدود ، إن استرجع الماضى فإن يذكر عن صديقه  
المنبوذ حسناته بل سيئاته .

نيجة الفنان أن يكتفى بوضع الجمهور وموضع المرأة ينصبها أمامه ،  
كل عملها أن تمكس له نفسه هو دون أن يفتن بهله النفس  
كترسيس (١) ، فالتجاوب بين الفنان والجمهور هو فى حقيقة  
الأمر تجاوب بين الفنان غير الواعية التى تملى عليه ونفسه الواحية  
التي يحدد الجمهور بعض ملامحها .

لذلك فأنا لا أحب كلمة شارلى أن الجمهور يحب الاستبعاد ،

---

(١) بطل : أسطورة يونانية قديمة عاقبتة الآلهة بأيقاعه فى حب صورته  
المنعكسة على صفحة الماء حتى أغرق نفسه ، فحولته إلى زهرة نرجس ؛ واسم  
الزهرة مشتق من اسمه ؛ والنرجسية فى علم النفس التحليل تشير إلى  
مرض عشق الذات :

هذا اعتقاد ضار بالفنان ، لأنه هو أيضا يخرج الجمهور من دور المرأة إلى دور المطية .

### ● لماذا تخلف الفن عندنا ؟

وينحىل إلى أن من بين أسباب تخلف الأدب والفن عندنا هذه العناية الفائقة باسترضاء الجمهور والجرى وراء أهوائه .

أحب أن يتأمل القارئ لنفسه بنفسه كيف يدب الخلداع والكذب في المؤلفات التي تسعى وراء استرضاء الجمهور ، وقد ظهرت هذه العلة بوضوح في فن السينما إذ هو الذي غالى كثيرا في الجرى وراء الجمهور وتملقه وقد تحقق فيها ما قلته عن انقلاب ود الجمهور إلى ملل ثم إلى استهتار كاد يتقلب إلى صمود .

والخطر الأكبر أن الذين يسعون لاسترضاء الجمهور يؤثرون أولا أشد الإيمان بأن هذا الجمهور سريع النسيان .

( « النساء » : ١٣/٤/١٩٦١ : ص ٦ )

## اعترافات لاثقال الإلصديق

**كنت** في مطلع شبابي وأنا أحاول كتابة القصة القصيرة لا أتناول مجلة انجليزية إلا وجدت فيها إعلانا يشغل صفحة كاملة، على رأسها إلى اليسار صورة رجل بشوش صارم معا ، تشير ذراعه الممدودة - وإن لم يركب جوادا - بإصبع ابراهيم باشا في ميدان الأوبرا إلى عنوان مكتوب بأحرف غلاظ مصطفى كالمتاريس : « لماذا لا تصبح أنت أيضاً كاتباً قصصياً ؟ » وينتهي العنوان بعلامة استفهام لها شكل بريمة زجاجة تنخر في الذهن لا في الفلة المحشورة ، وتحت العنوان سطر آخر بأحرف أدق وإن تكن أشد سوادا : - تعلم كتابة القصة وزد من دخلك ! » وينتهي السطر بعلامة تعجب كأنها جندي في طابور تمرين حين يصرخ فجأة الجاويش المعلم أبو شوارب « قف » ، فالنقطة التي تحت العلامة

هى نخبطة القدم على الأرض ، ثم يأتى بعد ذلك بأحرف منمنمة كلام حلو من فم هذا الرجل الصارم البشوش ، إنه لا ينتظر إلا إشارتك « وشيكا » بمبلغ الثلاثين شلنا دفعة أولى حتى يرسل إليك ، أيا كان همرك أو جنسك أو ملتك أو مكانك فى الأرض ، وببريد المسجل أول درس فى كتابة القصة . .

وفى أسفل الصفحة إلى اليمين — كما يقتضى التنسيق فى فن الإعلان — صورة أخرى صغيرة هذه المرة . فالناس تقامات وشتان بين القطب والمريد — هى لشاب عيونه مفضجلة ، يقول عنه أبو أصبح أماءه لا من وراء ظهره ، إنه كان مخلوقا مضيقا فى الحياة ، مغمورا لا يحس به أحد ، يعمل صيا فى دكان بقال ، وقاده حسن طالع لا يرزقه إلا من كان له بصر وإرادة وهمة إلى الرد على الإعلان وإرسال الشيك فأنقلبت حياته رأسا على عقب ، وأصبح فى فترة وجيزة يكسب كل شهر خمسين جنيها من تأليف القصص ، ولكن الأستاذ لا يذكرك أين ومتى نُشرت هذه القصص . وصورة التلميذ تتغير عددا بعد عدد ، هى تارة لفتاة تبسم ، وتارة لشيخ مغضن بلبين ، هل بعد هسلنا دلالة على نجاح المدرسة ؟

\*\*\*

وكننت حينئذ شغوقا بالقراءة لا يشبع لى نهم حتى أتلفت بصرى ، أفلى أغلب المجلات ولكنى مع الأسف لم أعثر رغم طول البحث وشدة الشوق على اسم واو لواحد فقط من هؤلاء



الكتاب الكبار خريجي تلك المدرسة ، والمعجب أن أهم سبب  
جعلنى أشم رائحة المشمش فى هذا الإعلان لم تكن مباغتة وزرعه «لو»  
فى أرض «ليت» بل هو الطريقة التى طبعت بها صورة الأستاذ  
كالشأن بالمجلات والصحف فى ذلك العهد ، فهى تخدع النظرة  
الأولى بأنها صورة من فعل قلم ولكنك إذا تأملتها وجلتها مرسومة  
لا بخطوط ولون متصل بل هى مؤلفة من نقط سود منفصلة  
متلاصقة عديدة كبرادة الحديد ، ورغم تلاصقها فقد بقى البياض  
المخروق يتنفس من تحتها ، إذ خيل لى منها أن القصور العلالى فى دماغ  
هذا الأستاذ مبنية هى الأخرى من قوالب منفصلة مرصوفة بدون  
«مونة» وأننى لو لقيته وجها لوجه وصافحته سأجد شخصه المهيب  
يتفتت من اللمسة وحدها ويخر على الأرض كوما من الرمال ؟

ومع ذلك اعترف لك أننى هممت مرارا أن ألتحق بهذه المدرسة ،  
فقد كان للإعلان سحر شديد لى نفسى ، أكاد من صورة الأستاذ  
ونظراته وكلامه أنام نوما مغناطيسياً ، ولم يمنعنى عنها إلا أننى كنت  
أغلب الوقت لا أحتكم على ثلاثين شلناً دفعة أولى ، وحتى لو كنت  
أملك مائة وخمسين قرشاً لعجزت عن تحويلها بشيك لى بنك ،  
فأنا من أشد الناس كرهاً للطواير ، وأضيعهم وأضيقةم صدراً أمام  
نوافله تحجب الصوت لا البصر ، لها فتحات مستديرة فى حجم غويشة  
من الزجاج لا تتسع إلا ليد متلصصة كيد النشال ، أو مستجدية  
كيد الشحاذ ، أو شرمة خطافة كمخلب حدأة ، وكنت أعيش حينئذ

في دمنهور فما عرفت رغم امتداد إقامتي فيها هل فيها بنك أم لا ، وإذا كان بها بنك أين موقعه .

نعم ، كنت أهم بدخول هذه المدرسة رغم الحوائق ، لاحبا في كسب خمسين جنيها في الشهر . لانظني أمعر عليك وأنصنع العفاف والقناعة ، فأنا أعرف أن القناعة عندك من مرادفات الخيانة ، وإنما أقول لك الحق كل الحق ولا شيء غير الحق ، ولك أن تصدقني أو لا تصدقني : لم يكن مطلبي ومناي إلا أن أجده من يأخذ بيدي ويفتح بصيرتي حتى أهتدي وأنا وحيد أضرب في بيداء أحس يحاطها المذلل واتساعها الخفيف وسراها الخادع وتخطي بلا بوصلة وليس لي نصيب من علم النجوم ، والرياح الهوج تناوشني وتنازعني ملابسي ولحي وروحي .

وكنت أطوى الحجة على الإعلان وأبقية مدفونا كبقية أسراري ومع ذلك ظل يلاحقني ليالي عديدة : سميري هو الأرق لأنني أعذب نفسي قبل النوم بسؤال عجيب عن « لو فتحت مدرسة مماثلة فإذا كنت تقول في دروسك ؟ » . اضحك ما شئت من التلميذ الخائب الذي يريد أن يقفز في غيبة الأستاذ إلى مقعده ، ولكن لم يكن الأمر كذلك ، إنما كان هذا السؤال أول همس من نفسي يفتح لي باب قصة أحبيت كتابتها تدور حول حياة رجل كصاحبنا ، أصف فيها ما يلقاه من مفارقات في إجابات تلاميذه وأقيم منهم مظهرة كبيرة أمام داره تطالبه برد المصروفات لأن المدرسة

أونطة : واجعله يكتب دروسه ويرسل باسم مستعار قصصاً  
يؤلفها طبقاً لتهجه إلى جميع المحلات فتعيّلها إليه باعتدار رفيق  
وتنصحه بأن يقرأ الإعلان المنشور في صفحة كذا بمجلة كذا ،  
فيسارع إلى المحلة المذكورة ويفتحها على الصفحة المطلوبة فإذا به  
يجد إعلاناً من مدرسته هو . . . ولكنى لم أكتب هذه القصة  
إلى اليوم ، وضاعت كآلاف الأصوات الهامسة التى لاحقتنى  
ولم ترق إلى درجة الإفصاح .

وهنا ينخيل إلى " أنك ستهجم على " سؤال أعجب هو والآن  
وقد بلغت بداية نهاية عمرك ووجعت دماغنا هل تستطيع الإجابة  
على سؤالك السابق الذى كان يؤرقك ؟ " .

دعنى أحك رأسى قليلاً قبل أن أحاول إجابتك إلى طلبك ،  
جبراً بخاطرك وإعفاء لك من كسوفك ، ثم أقول لك لئن  
لو فتحت الآن مثل هذه المدرسة بلعلت الإعلان ترجمة حرفية  
للنص الانجليزى - من قبيل الاقتباس ! فقد ثبت نجاحه وليس  
أهلنا عقلة من العقلة حتى ينجيب فيهم أثره ، أما رأس الإعلان  
فلن أجعله صورة أستاذنا القديم مع اعترافى بمكانته فإنها لن تنطلى  
على أهل بلدنا وسيدركون من أول نظرة إنه إنجليزى أزرق  
التاب ، وإنما سأذهب إلى قلم السوابق وأقتش في البومات كبار  
النصايين عن صورة تترجم إلى العربية سحنة الأستاذ الإنجليزى  
فأنا واثق أن سحرها المزدوج لن يقارم ، أما عن صور التلاميذ

فسأحاول أن أشتري بالآفة دشت الأبوينيات المستهلكة من شركات الترام والأتوبيس . وإذا وقع القاس في الراس وجاءت ساعة الجحد وجلست في خلوة أكتب المنهج فسأختصره كله في درس فرد ، والدرس اليتيم في جملة واحدة صغيرة هي من ثلاث كلمات . عند عامة الناس بل من كلمتين إن أردت أن ترسل بها بركة ، هذه الجملة هي « خليك بنى آدم » .

فلإذا جاءني تلميذ يقول لي إنني ضحككت على ذقنه ، وأنه ليس في حاجة إلى مدرستي لسماع هذه النصيحة ، وأنه ليس مغفلا حتى يدفع ثمنها لها ، فإنه يجدها أكثر من مرة مطبوعة على ورق شفاف يذف قطعة من الشيكولاته أم يخت ، وأنه لو أراد لمضغها وبلعها أيضا لتستقر في جوفه وتسرى في دمه وينجح مقعولها الأكيد كما كانوا يأكلون قاب الأسد طلبا للشجاعة ، إذا جاءني تلميذ بمثل هذا الكلام فسأقول له من فوري :

« يا جاهل ! ألا تعلم أن أعقل العقلاء هو من يبيع للناس حكما سقطت من جيوب الأجيال السابقة وبقيت ملقاة في عرض الطريق عارية سافرة ندوسها الناس بالأقدام في خفتهم ؟ إن مدرستي ليست مفتوحة للغشم الخبيث الرقحاء الجهال أمثالك ، ها هو ذا أول قسط أعيده إليك وأرني عرض أكتافك . أنت مرفوت لقرط الغباء وقلة الذوق وسوء الأدب وإذا لم تنصرف فسننادى بوليس النجدة . طبعاً أقول له هذا التهديد تهويشا لأنني أحرص كل الحرص

على أن لا يعرف رائحي لا البوليس ولا اللسان الأزرق ، .

أما التلميذ الناصح الواعي الذى يصيح كتكوته من البيضة  
فسيدرك بلا عناء أنه تلقى منها كاملا ويظل مواظبا على دفع  
الأقساط الباقية فى مواعيدها سيتأمل الكلمات الثلاث ويعلم أنتى  
ألقى عليه عبثا ثقيلًا وأطالبه بشئ عسير جسيم ، إنه امتحان  
لا ينجح فيه الكثيرون فأننا أريد منه أن ينفع أتم انتفاع بكل  
ما وهبه الله لبنى آدم ، من بصر وسمع وشم وذوق ولمس ،  
ومن عقل كالجوهره ، وروح هبات أن تغنى إذا بلى الجسد ،  
فلا تكون مقلته مرآة صدئة بكاء ، الصورة التى تسقط عليها  
كأنما تتعثر بها ولا تجد من يلقطها ، وتبقى لزجة أو باهتة  
أو مشلولة ، بل يترك عينه التى خلقها الله له تعمل عملها على  
مسجيتها إنها علة سحرية مستوية لا محدبة ولا مقعرة شأن  
مرايا حلقات الملاهى .

هذه الكرة الفضيلة الرجاجة التى تفتؤها لصبح طفل قادرة  
على أن تمدد بضوء لا يقل من ضوء المصابيح الكشافه لظلمات  
أو أسعة إكس ، سبرى بفضلها الأشياء رؤيتين : الأولى وهى  
منفصلة كأن ليس فى الوجود أحد غيرها ، والثانية وهى مرتبطة  
بملايين روابط القرين والنسب لكل ما يحويه هذا الكون من  
حتى وجها ، وميراها ثانية على طريقة أخرى مرتين : مرة  
وهى مخلوقة وليس الزمن من عناصرها ، فتتطق له بالسر الذى

أودعه الله فيها ، ومرة وهي أسيرة فريدة في يد الزمن ، قد لصق بها عديد من الظلال العابرة تحجّرت في تفسير لفظي لها في قاموس ، فإذا جاءت الصورة بعد ذلك منبعجة أو مقعّرة وجدت عنده مع ذلك استواءها بفضل هذه النظرة الشاملة ، حيث أنه لن يجد بين نقوده درهما دميّا يتأوله أو يتناوله ، وسيستوى فهمه شيئاً فشيئاً حتى إذا بلغ درجة الصلح والتسامح تَضُح .

وكما يفعل بعينه يفعل بأذنه ولسانه وأنفه وكهرياء جلده ، ثم يصون عقله عن السموم ويفتح جميع نوافذ روحه ، ولودخلتها الزعابيب والأعاصير ، سيعلم التلميذ الناجح أن مدرستي تُعنى بالفنان كإنسان قبل أن تُعنى بما يكتبه .



يرجع مرجوعنا إلى سيرة المدرسة الإنجليزية التي سحرتني في مطلع شبّابي فأعترف لك أنني تجنّبت هذه المدرسة تجنب السليم للأجرب ، كما تجنّبت فيما بعد — بالسليقة لا بنصح من أحد — جميع المؤلفات التي تعالج صنعة القصة وترسم لها الحدود والأهداف وتضع القواعد والشروط وتستخدم مصطلحات كثيرة كأننا في هيكل ماسوني ، صوت هامس داخل يستعطفني : « أرجوك أن تتركني في حالي ، أنا خائفة من هسله الحكمة كلها أن تقسد على أخلاقي وأحلامي وطريقة لعبي » فأقول لها : « وتفضح جهالك وإفلاسك ؟ » فتجيب : « لو شرحت للبهلوان وهو فوق الجبل نظرية التوازن لسقط على الأرض واندقت عنقه » .

وأحمد الله أنه ألهمنى فى سن مبكرة أن الفن فوق ووراءه جميع الآراء والنظريات ، وأنه يخرج عن جميع التعاريف المانعة الجامعة ، وأنه لا يعرف وصولاً إلى نهاية ، وأن لا فن بلا صنعة ، ولكن الصنعة فى الفن هى أيضاً فن ، وأن قشور الصنعة قد تنال بالتعليم أما روحها فهى روح الفنان ذاته ، وأن المسألة كلها هى هل أنت غنى أم فقير .

شبهت كل المؤلفات التى تعلم صنعة القصة بتلك الآلة الملامعة بالورنيش التى تشتريها لتعرف بها فى حجرة نومك لمدة التجديف ونفقه ، ليست جرادة كبيرة من خشب وحديد ، بل هى قارب من صلب ، قارب به مجدافان عفيان ومقعد صغير يتحرك . فماذا ينقصك ؟ اجلس داخله وازحف بالمقعد إلى الأمام إلى أن تقرقص وترغز ركبتيك بطنك ، ثم تمدد به إلى الوراء حتى تكاد تستلقى على قفاك وان لم تضحك ، ثم ادفع المجدافين عكس طريقك وأنت حر ، فلما إلى النافذة المفتوحة ( فقد أوصوك بالهواء الطلق ) ومنها إلى الطريق من رابع دور ، ولما إلى الحمام ماراً تحت منضدة الأكل كأنها كوبرى ، وإذا ضربت معك الحزمة فارجم إلى سلسلة الصور فى الكتيب الأنيق الذى دسّه البائع فى يدك كأنه وصفة تعالج كل الأمراض يُحاط سرّها بالكتمان إلا للأعزاء ، ستمشى فى عضلاتك كل حركة التجديف ، وقد لا يختلف خطوك بعد التمرين إلى الحمام والقفوطة حول رقبتك ، وظهرك يحنى ، وذراعاك مقوستان ورجلاك معصمتان عن جبرى .

أعضاء الناحى من القارب للدوش ، فماذا تريد فوق كل ذلك ؟  
ولكنك مع الأسف لو وضعت هذا القارب فى الماء لاعلى البلاط  
لغرق من فوره ، أين أنت — ولا مؤاخذه — من راكب النهر ،  
أسلم نفسه للكون ، انهدمت بينهما الحواجز ، النسيم الرفيق  
المداعب يجلو صده ، والماء يقرع الخشب يحدته بلكته ، وهل  
ينطق من فى فيه ماء ؟ — والشاطئ يتبختر أمامه ويفتح له صدره ،  
والسما تبصره بود وتتجاهله بود ، والألوان والخطوط تنطق له ،  
وهذا الصميت العميق الذى يتسرب الى روحه رغم الآلاف من  
أصوات الأحياء والجهاد بعيداً حوالبه .



لم أقرأ هذه المؤلفات فى صتعة القصة وفضلت أن أتعلم — كما  
يقال — من منازلهم ، بالمعاناة والتجربة وتأمل آثار كبار الكتاب ،  
هم أساتذتى وأتمنى وأحبائى .

( د المساء ، ١٩٦١/٢/٥ ، ص ٦ )



# فهرس

( ١ )

٧	• • • • •	سيداتى ، آنساتى
١٦	• • • • •	انا خرمان
٢٣	• • • • •	اين تاكل اليوم ؟
٣٠	• • • • •	الوصايا العشر فى سوق الخضار
٣٧	• • • • •	حجاب للنوام المحبة
٤٧	• • • • •	يا اولاد الحلال
٥٢	• • • • •	مطاردة التسولين
٥٩	• • • • •	تاريخ من نوع جديد
٧٠	• • • • •	انا والتسيان ودواه
٨٢	• • • • •	اى حاجة
٨٩	• • • • •	فرتكة وقلة بركة
٩٧	• • • • •	حكايات تريح القلب
١٠٥	• • • • •	الى اصدقاءى السياح

( ٢ )

١١٥	.	.	.	.	.	.	.	.	البلطة والسجرة
١٢٥	.	.	.	.	.	.	.	.	الحكاية وما فيها
١٣٧	.	.	.	.	.	.	.	.	فضائل في التلاجة
١٤٣	.	.	.	.	.	.	.	.	الصنف المطبق
١٥٠	.	.	.	.	.	.	.	.	بينى وبين صديق
١٥٥	.	.	.	.	.	.	.	.	خرج ولم يعد
١٦٤	.	.	.	.	.	.	.	.	سبعة في قارب

( ٣ )

١٧٣	.	.	.	.	.	.	.	.	هذا الجمهور
١٨٣	.	.	.	.	.	.	.	.	اعترافات لا تقال الا لصديق



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

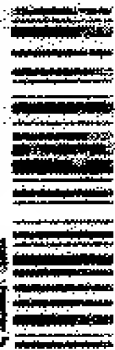
رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٦/٢٦٨٧  

---

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ٠٥٧ ٧



Bibliotheca Alexandrina



0225674

مطابع الهيئة المصرية العامة

الكتاب ٥٥ قرشنا

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)